

روايات
قصص
للجيب

فارس الأندلس الهاربة



www.lilias.com/vb3

مين هناك

د. نبيل فاروق

١ - تحت المطر ..

بدأ ذلك الصباح على نحو غير مألوف ، بالنسبة لهذه الفترة من العام ، في مملكة (غرناطة) ، آخر معاقل العرب في (الأندلس) ، فقد تجمعت السحب وتكاثفت ، قبيل الفجر بقليل ، وحجبت أشعة الشمس عند الشروق ، ثم لم تلبث الأمطار أن انهمرت في غزارة ، وراحت تروى ربوع (غرناطة) وحقولها الخضراء ، وتصنع أنهاراً صغيرة ، تجري من التباب إلى الوديان ، فتتضافر وتمتزج ، لتصنع بركاً وبحيرات ، لا تلبث الأرض أن تمتصها ، وتروى بها الأعشاب والأشجار الباسقة اليانعة ..

وهناك .. في ذلك المعسكر الصغير ، خارج مدينة (غرناطة) ، أزاح معلم السلاح (مهاب) سائر الخيمة الكبيرة في حرص ، وتطلع إلى المطر المنهمر ، وهو يتمتع في شيء من الضيق :

- يبدو أن الأمطار ستستمر لفترة طويلة ..
يا للخسارة !

هز الشيخ الحكيم رأسه في ببطء ، وهو يقول :
- لا تغضب من الطبيعة يا ولدي ، فهي صنعة الخالق عز وجل ، وهو أحكم بخلقه وأعدل .

من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمن الماضي والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

غمغم (مهاب) في حرج :
 - إننى لم أغضب يا سيدى ، ولكن ..
 توقف عن إتمام عبارته ، وبدا مرتبكا بعض الشيء ،
 فسأله الشيخ في هدوء ووقار :
 - ولكن ماذا يا (مهاب) ؟
 تضرع وجه (مهاب) بحمرة خفيفة ، أخفتها لحيته
 الكثنة ، ومط شفتيه في حرج وارتباك ، ففقهه (فارس)
 ضاحكا ، وهو يقول :
 - ولكن (مهاب) جاع يا سيدى .
 ابتسم الشيخ مغمما :
 - آه .. هذا هو السبب إذن .
 هتف (مهاب) في حدة :
 - لا .. ليس هذا هو السبب .
 ثم ازدرد لعابه ، واستطرد في شيء من الأسى :
 - يمكننى أن أسد جوعى بثمرة أو ثمرة من الفاكهة .
 أطلق (فارس) ضحكة مرحة أخرى ، فأضاف (مهاب)
 فى عصبية :
 - ثم إننى أبغض البقاء طوال النهار داخل الخيمة
 كالسجين .
 ابتسم الشيخ ، وقال :
 - فلتحمد الله (سبحانه وتعالى) ، على أننا سكنا

الشمع على قماش خيامنا ، وإلا لانهمرت الأمطار داخلها ،
 كما تنهمر خارجها .
 اعتدل (فارس) ، وقال :
 - هذا صحيح يا سيدى ، فالشمع الذى طلبنا به الخيام ،
 يجعل الأمطار تنزلق منها ، فلا تبتل أو تنهار ، إنها فكرة
 عبقرية بحق .
 رفع الشيخ سبابته ، وهو يقول :
 - بل هو العلم يا ولدى .. العلم يجعلك تتفوق على
 خصومك ، وتتقى نواب الدهر والطبيعة ، لو أنك مزجته
 بالإيمان الخالص ، ومخافة الله عز وجل .
 زمجر (مهاب) ، وهو يقول :
 - وماذا عن القوة ؟
 التفت إليه الشيخ ، وقال :
 - العلم قوة يا (مهاب) .
 مط (مهاب) شفتيه ، دون أن يجيب ، وإن شئت
 ملامحه عن عدم اقتناعه ، فنهض (فارس) ، وقال
 ضاحكا :
 - عفوا يا سيدى .. معطى (مهاب) يعجز عن التفكير
 بشكل جيد ، عندما تكون معدته خالية .
 قال الشيخ فى هدوء :

- المعدة الممتلئة تعنى رأسًا فارغًا .
أطلق (فارس) ضحكة عالية ، واختطف قوسه
ونشابه ، وهو يقول :

- هذا لا ينطبق على (مهاب) .
قالها ، واتجه إلى سائر الخيمة ، فهتف به (مهاب) :
- إلى أين ؟

أجابه مبتسمًا :
- سأحضر لك شيئًا يمكن شربه .. أنا أعرف مرادك .
بدت الفرحة في عيني (مهاب) لحظة ، ثم لم يلبث أن
كتمها خلف نظرة صارمة مصطنعة ، وهو يقول :
- لا .. لن تخرج في هذا المناخ الرديء ، من أجل ..
قاطعه (فارس) بسرعة :
- لا تحاول منعني يا صديقي .. إنني أرغب في هذا ،
فلقد أوحشني الصيد والقنص .

هتف (مهاب) :
- في مثل هذا الطقس ؟! .. إنك لن تجد حيوانًا واحدًا
خارج جحره الآن .

ضحك (فارس) ، وقال :
- الحيوانات لا تخشى المطر مثلنا يا صديقي .
التفت (مهاب) إلى الشيخ ، وقال مستنكرًا :
- سيدي .. هل ستسمح له بهذا ؟

توقف (فارس) ، وتطلع بنظرة متسائلة إلى الشيخ ،
الذي قال في هدوء رصين :
- دعه يذهب يا (مهاب) .

التقى حاجبا (مهاب) في دهشة ، وهو يحدق في وجه
الشيخ ، وهم يقول عبارة اعتراضية قصيرة ، ولكن مهابة
الشيخ ووقاره خنقا العبارة في حلقه ، فتمتم في صوت
متحشرج :

- كما تأمر يا سيدي .
ابتسم (فارس) في ارتياح ، وقال في مرح :
- أشعل النار يا (مهاب) ، واترك لعبك يسيل ،
وانتظر عودتي .

ثم انطلق في نشاط وحيوية إلى جواده (رفيق) ، الذي
وقف هادئًا ساكنًا ، تحت قطرات المطر ، وكأنما لا تشكّل
له تقلبات الطبيعة أي إزعاج أو قلق ، ولكنه لم يلبث أن
اعتدل في حماس ، والتفت بعنقه إلى صاحبه ، الذي
هتف به :

- صباح الخير يا (رفيق) .. أبشر يا صديقي ..
سنزاول تدريباتنا كالمعتاد .

وأمسك معرفة (رفيق) ببسراه ، ثم وثب على ظهره
في رشاقة ، ولم يكد يستقر على متنه ، دون سرج أو
لجام ، حتى لكزه بركبتيه في بطنه ، وهو يقول :

- هيا يا صديقي .. انطلق .

رفع الجواد قائمته الأماميتين ، وأطلق صهيلًا حماسيًا قويًا ، وهو يضرب بهما الهواء ، والتمعت عيناه في جذل ، وكأنما كان ينتظر هذا النداء ويشتاق إليه ، ثم انطلق براكبه يدور حول الخيام الثلاث ، قبل أن ينهب الأرض نهبًا ، متجهًا إلى الدغل القريب ، والأمطار تفرقه مع صاحبه ، وتتناثر حولهما مع ضربات حوافره القوية ..

وفي الخيمة الكبرى ، غمغم (مهاب) في قلبي :

- لماذا سمحت له بالذهاب يا سيدي ؟

أجابه الشيخ في هدوء رصين :

- إنه فارس يا (مهاب) .. وعلى الفارس أن يعتاد

القتال ، في كل مناخ ..

شعر (مهاب) بالخجل من نفسه ، لما تضمنه جواب

الشيخ من حكمة ومنطق ، وتمتم في خفوت :

- صدقت يا سيدي .

ثم أزاح ساتر الخيمة ، فسأله الشيخ :

- إلى أين ؟

أجابه في تلقائية :

- سأشعل النار .. وأنتظره .

وابتسم الشيخ ..

وفي نفس اللحظة ، كان (فارس) يعدو بجواده وسط

الدغل ، وهو يدير عينيه فيما حوله ، بحثًا عن فريسة

تصلح لطعام الجميع ، وابتسم وهو يقول لجواده :

- من الواضح أن المهمة لن تكون سهلة أو بسيطة

يا صديقي ، فالدغل يبدو خاليًا تقريبًا ، من كل ما يتحرك ،

حتى أن ..

بتر عبارته بغتة ، عندما لمحت عيناه أرنبًا بريًا ،

اختفى من الأمطار المنهمرة ، خلف جذع شجرة كبيرة ،

فجذب لجام جواده ، وهو يهمس في انفعال :

- رويدك يا (رفيق) .. يبدو أنه هناك أرنبًا يزعم

الانتحار .

أوقف جواده ، وهبط عن متنه في حذر ، وربّت على

عنقه يدعوّه إلى الهدوء والصمت ، ثم جذب سهمًا من

كنائته ، ووضع في قوسه ، وتحرك في ببطء ، حتى اختفى

خلف شجيرة قصيرة ، تطلّ على جذع الشجرة مباشرة ،

وجذب وتر القوس في قوة ، وهو يصوب سهمه نحو

الأرنب ، ثم أطلق السهم ..

وحدث أغرب شيء ممكن ..

لقد أخطأ (فارس) هدفه ..

أخطأه على الرغم من قصر المسافة ، وقوة القوس

والسهم ، ومهارته هو المعروفة ، حتى أن (رفيق) نفسه أطلق صهيقاً اعتراضياً خافتاً ، عندما رأى الأرنب البري يعدو مبتعداً ، ولكن (فارس) لم يبد أدنى اهتمام بالأرنب الهارب ، ولا بالسهم الذي أخطأ هدفه ، وإنما أشار إلى نقطة بعيدة ، هاتفاً :

- هل رأيت ؟.. هل رأيت هذا يا (رفيق) ؟

ثم وثب على صهوة الجواد ، وهو يستطرد في حماس :
- يبدو أنه هناك من يحتاج إلينا يا صديقي .

لم يفهم (رفيق) ما يقوله فارسه ، ولم يدرك ما الذي رآه ، وجعله يفقد تركيزه في اللحظة الأخيرة ، ويخطئ إصابة هدفه ، ولكنه شعر بغريزته أن صاحبه يعاني انفعالاً قوياً مباغتاً ، فأطاعه بسرعة ، وانطلق يعدو إلى حيث يقوده .. أما (فارس) ، فقد تعلقت عيناه بشبح يعدو فوق الحشائش المبتلة ، وقد أخفى الضوء الخافت في الدغل والأمطار ملامحه ، وخلفه فارسان ، يحاولان اللحاق به واقتناصه ..

وكان من الواضح أن هذا الذي يعدو امرأة ..

امرأة يطاردها رجلان ..

وهذا يقلق (فارس) دائماً ، ويثير حنقه واشمئزازه .. أن يقاتل الرجال النساء ..

ولكن هذا لم يكن السبب الوحيد ، الذي دفع (فارس) للانطلاق بهذا الحماس ..
كان هناك سبب أكثر قوة ..
فالرجلان اللذان يطاردان المرأة لم يكونا من أهالي (غرناطة) ..
إنهما فارسان ..
فارسان قشتاليان ..

★ ★ ★

أطلقت المرأة صرخات قصيرة متتابعة ، تموج بالرعب والفرع ، وهي تعدو أمام الفارسين ، اللذين راها يلوحان بسيفيهما ، وهما يطاردانها ، ويلتفان حولها ، في محاولة لحصارها واقتناصها ، ويطلقان صيحات ظافرة ساخرة ، وأحدهما يهتف بزميله :
- تذكر ألا تصيبها بجروح أو كدمات .. نريدها سليمة معافاة .

قهقه زميله ضاحكاً ، وهو يقول :

- هل توصيني ؟!.. كيف لي أن أتلغ هذا الجمال ،

وهذه الفتنة المجسمة ؟!

لهتت المرأة في تهالك ، وقد أنهكها التعب ، وتلاحقت أنفاسها ، وتصاعدت ضربات قلبها في شدة ، حتى لم تعد تحتمل ، فتوقفت لحظة ، ثم هوت فوق العشب المبتل ،



وانفجرت باكية ، وهي تضرب الأرض بقبضتها في مرارة
ويأس .. وجذب الفارسان عناني جواديهما ، وتألق الظفر
في عيونهما ، وقال الأول :

- لم يكن الأمر يستحق كل هذا العناء .
هزّ الثاني كتفيه ، وقال بابتسامة أشبه بابتسامة
الذئاب ، وهو يهبط عن صهوة جواده :
- احتفظ بهذا الرأي لنفسك .

ثم جذب المرأة من شعرها في قسوة ، وهو يستطرد :
- إنني أدفع عمري من أجل فاتنة مثلها .
لم يكذ يتم عبارته ، حتى ظهر (فارس) على متن
جواده ، وهو يهتف في غضب :
- استعد للدفع إذن أيها القشتالي .

اعتدل القشتالي ، واستل سيفه في سرعة ، وشاركه
زميله فعلته ، واستقبل الاثنان (فارس) في وحشية
وشراسة ، ولكن (فارس) استل سيفه بدوره ، وانقضّ
على القشتالي الذي يمتطي جواده ، والذي رفع ترسه ليتقى
الضربة ، هاتفا :

- ابتعد أيها العربي ، وإلا ..
هوى (فارس) بسيفه على المجنّ الذي يحمله
القشتالي ، وهو يقول :
- وإلا ماذا ؟

ثم هوت فوق العشب الميت ، وانفجرت باكية ، وهي تضرب الأرض
بقبضتها في مرارة ويأس ..

وكانت ضربته من القوة والشدة والمهارة ، حتى أنها
زلزلت كيان القشتالي ، وجعلت جسده كله يهتز في قوة ،
وأفقدته قدرته على القتال لحظة ، تحرك خلالها (فارس)
في حنكة ، وأدار سيفه في نكاء رائع ، وضرب سرع
القشتالي ، فمزق تلك الأربطة الجلدية ، التي تثبت الترس
إلى ذراعه ..

وفقد القشتالي سائرته ، في نفس اللحظة التي هاجم فيها
زميله (فارس) ، محاولاً طعنه بسيفه في معدته ، ولكن
(رفيق) تراجع في سرعة ، كأي جواد مدرب شجاع ،
وأطلق صهيقاً قوياً ، فاستدار (فارس) إلى القشتالي
الثاني ، ودفعه بقدمه في صدره بقوة ، ثم هوى على يده
بسيفه الفضي ..

وصرخ القشتالي ، والسيف يسقط من يده الجريحة ،
وانطلق هارباً ، ليثب على متن جواده ، ويعدو به هارباً ،
فتراجع زميله لحظة ، وهتف :
- اللعنة .

ثم جذب عنان جواده ، وانطلق به خلف زميله ،
ليشاركه فراره ، فصاح بهما (فارس) في غضب :
- إياكما ووطء تراب (غرناطة) مرة أخرى .

وراقبهما في حزم ، حتى غابا عن الأنظار ، ثم التفت
إلى المرأة ، وهو يقول في لهجة مهذبة :
- انهضى يا سيدتى .. لقد زال الخطر ، وأنت الآن في
يد أمينة .

أجهشت المرأة بالبكاء لحظات ، ثم نهضت في بطء
بثوبها المبتل ، واستدارت تتطلع إليه بعينين محمرتين من
أثر البكاء ..

وانعقد حاجبا (فارس) في شدة ..
لقد كان يعرف هذه المرأة جيداً ..
وكان وجودها في هذا المكان مفاجأة ..
مفاجأة مذهلة .



٢ - المرأة ..

، غالا ؟! ..

هتفت الملكة (إيزابيلا) ، ملكة (قشتالة)
(ليون) ، بتلك الكلمة في مزيج من الدهشة
والاستنكار ، في وجه الملك (فرناندو) ، الذي ابتسم في
برود ، وارتشف رشفة من كأسه ، وهو يقول :

- نعم .. (غالا) .. لماذا يدهشك هذا ؟

انعقد حاجبا (إيزابيلا) في شدة ، وهي تتطلع إليه
بنظرة متوترة ، ثم اعتدلت في كبرياء ، وقالت :

- لست أصدق هذا .

أطلق ضحكة ساخرة قصيرة ، وهو يقول :

- أنتقين بها إلى هذا الحد ؟

هزت رأسها في حزم ، وهي تقول :

- ليست مسألة ثقة .. (غالا) وصيفتي الخاصة منذ
عشر سنوات ، وأنا أعرفها تمام المعرفة .. قد تكون
عصبية وعنيدة ، ولكنها ليست أبدا خائنة .
رمقها (فرناندو) بنظرة عجيبة ، ثم جرع كأسه كله ،
قبل أن يقول :

- هل تعلمين أنني طلبت منها إرسال رسالة عاجلة
بالحمام الزاجل ، إلى بعض فرقنا ، لمنعها من الاشتباك مع
العرب ، ولكنها لم تفعل ، وإنما خدعتني بإرسال حمامة
أخرى إلى معسكر آخر بعيد ؟

قالت (إيزابيلا) :

- ربما أخطأت اختيار الحمامة المطلوبة .

ابتسم في سخرية ، وهو يقول :

- (غالا) ؟! .. أنت واثقة من أننا نتحدث عن

الشخص نفسه .

عاد حاجبا (إيزابيلا) ينعقدان مرة أخرى في شدة ،

وهي تقول :

- اسمع يا (فرناندو) .

زمجر قائلاً في غلظة :

- خاطبيني بلقب (مولاي) .

تراجعت في حركة غاضبة ، ولكنها كتمت غيظها كله

في أعماقها ، وهي تقول :

- فليكن يا (مولاي) .. إنك لن تنجح أبداً في إقناعي

بأن (غالا) قد هربت من القصر ، خشية عقابك ، وأنها

تجاوزت كل خطوطنا ، حتى أمكنها الوصول إلى

(غرناطة) .. هناك أمر ما خلف هذه الخدعة القذرة .

قال ساخراً :

- أمر مثل ماذا ؟

قالت في حدة :

- لست أدرى بعد .

ثم أردفت غاضبة :

- ولكننى سأتوصل إليه ، أن عاجلاً أو آجلاً .

قال فى سخرية :

- حُلاً ؟

ثم انعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يستطرد :

- فكرى كما يحلو لك يا عزيزتى (إيزابيلا) ، ولكن كل

ما لدى لأخبرك به ، هو أن (غالا) هاربة بالفعل ، ولقد

أصدرت أوامرى بمطاردتها بلا رحمة ..

واعتدل ليثذ قامته ، وهو يضيف فى حزم :

- وحتى آخر الدنيا .

ولم يكن من الممكن أن تناقشه (إيزابيلا) ، بعد

ما حسم به الأمر ، ولكنها ظلت تشعر فى أعماقها أنه هناك

سرٌ يختفى خلف فرار (غالا) ..

سرٌ غامض ..

★ ★ ★

مط (مهاب) شفتيه فى تملل ، وهو يتطلع إلى

الأفق ، ويغمغم محنقاً :

- أين ذهب هذا الفتى ؟.. لقد أشعلت النيران مرتين

حتى الآن ، وها هى ذى تكاد تنطفئ ، ولم يظهر بعد .

أجابه الشيخ من داخل الخيمة :

- العثور على صيد ثمين ليس بالأمر السهل ، فى مثل

هذا الطقس .

قال (مهاب) فى تذمر :

- هذا ما أشرت به ، ولكنكما آ

بتر عبارته دفعة واحدة ، على نحو أثار قلق الشيخ

داخل الخيمة ، فسأل :

- ماذا حدث ؟

مضت لحظة من الصمت ، ثم أجابه (مهاب) بصوت

يحمل الكثير من الدهشة :

- يبدو أن ذلك الفتى قد عثر على صيد جديد ، ولكنه

لا يصلح - على الأرجح - للأكل .

كانت العبارة كافية لإثارة اهتمام الشيخ وفضوله ،

فأزاح ساتر الخيمة ، وأطل برأسه منها ، ثم اقترب حاجباه

فى مزيج من الدهشة والقلق ، عندما رأى (رفيق) عائداً

إلى المعسكر ، وعلى متنه (فارس) ، وامرأة شقراء

فاتنة ، تجلس خلفه ، وقد ألقت قدميها إلى يمين الجواد ،

وأحاطت وسط (فارس) بذراعيها ..

وفى هدوء ، اقترب (فارس) من المعسكر ، ورفع يده

الممسكة بأذنى أرنب جبلى ، وهو يقول مبتسماً :

- ها هو ذا الطعام يا صديقى (مهاب) .. ضع مزيداً من

الحطب فى النار ، وسنتناول جميعاً وجبة شهية بعد قليل .

ثم عاون (غالا) على الهبوط ، ووثب بدوره عن ظهر الجواد ، وهو يشير إليها ، قائلاً :

- أقدم لكما (غالا) .. الوصيفة الخاصة للملكة (إيزابيلا) .

تطلع إليها الاثنان لحظة في صمت ، ثم قال الشيخ في هدوء رصين :

- أهلاً بك على الرحب والسعة يا بنيتى .

والتفت إلى (مهاب) ، مستطرذاً :

- هيا يا ولدى .. أعد الطعام لضيفتنا .

لم يبد (مهاب) اعتراضاً ، وهو يعد الأرنب البرى ، ويبدأ في شتيه ، في حين أشار الشيخ بيده ، وهو يقول :

- اذهبي لتحصلي على قدر من الراحة يا بنيتى ،

وستجدين ثوباً جافاً ، من ثياب (فارس) .

غمغت (غالا) ، وهي تسرع إلى خيمة (فارس) :

- أشكرك يا سيدى .. أشكرك كثيراً .

ارتسمت على شفתי الشيخ ابتسامة باهتة ، في حين

راح (فارس) يروي له ما حدث بكل التفاصيل ، واستمع

إليه الشيخ في اهتمام ، ثم قال :

- أحسنت فعلاً يا ولدى .

مط (مهاب) شفتيه ، وهو يقول :

- لن أثق أبداً بهذه المرأة .. إنها قشتالية ، والذئاب لا تنجب حملاناً .

قال الشيخ في هدوء :

- إنها ستقضى الليل في معسكرنا ، حتى تجف ثيابها ،

ثم نذهب بها إلى الحمراء (*) مع مشرق شمس الغد .

تنهد (مهاب) في ارتياح ، وقال :

- هذا أفضل .

ثم أضاف في حدة :

- وإن كنت أشعر أن الليل سيحمل لنا الكثير .

أجابه (فارس) في حزم :

- اطمئن .. سأتولى الحراسة بنفسى طيلة الليل .

نقل الشيخ بصره بينهما ، ثم قال :

- فليكن يا ولدى .. فليكن .

ولكنه ، في أعماقه ، كان يشعر أيضاً أن الليل سيحمل

الكثير ..

والكثير جداً ..

★ ★ ★

(*) الحمراء : مجموعة من الأبنية ، مقامة على ربوة تطل على (غرناطة) ، بنيت فيما بين (١٢٤٨ - ١٣٥٤) ، وكانت قلعة وقصراً للملوك (بنى نصر) ، أو (بنى الأحمر) ، وقد لعبت القلعة دوراً هاماً في المنازعات التي جرت حول الإمارة في عهدهم ، وتعتبر الحمراء أجمل أمثلة العمارة الإسلامية في (الأندلس) ، وبها ساحة السباع ، ونافورة السباع ، ولقد كان سقوطها في يد الأسبان إيذاناً بانتهاء الحكم العربى في حضارة (الأندلس) .

كاد (فارس) يقسم بأنه لم ير في حياته كلها ، من هي أكثر فتنة وجمالاً من (غالا) ، بعد أن صلفت شعرها ، واستعادت نضارتها ، وحصلت على قسط وافر من النوم ، على الرغم من أنها كانت ترتدى ثيابه هو الخشنة ، لا ثيابها الوردية الحريريّة الناعمة ..

ولكن (فارس) لم يتطلع طويلاً إلى (غالا) ، وإنما تحاشى النظر إلى فتنتها الطاغية طوال الوقت ، وهي تتناول الطعام معهما ، أو تصف شعرها الأشقر الطويل أمام خيمته ، بل انهمك مع (مهاب) في تدريبات قتالية طويلة ، بعد أن توقف المطر عن الانهمار ، حتى مالت الشمس إلى المغيب ، وتوقف صليل السيوف ، وارتسمت على شفتي (مهاب) ابتسامة مرهقة ، وهو يربّت على كتف (فارس) ، قائلاً :

- أحسنت يا فتى .. ضرباتك اليوم قوية وحاسمة .

أجابه (فارس) ، وهو يعيد سيفه إلى غمده :

- وضرباتك كذلك .

ضحك (مهاب) ، وهو يقول :

- ضرباتى ١٢ .. إنك لم تر ضرباتى ، فى زمن الصبا والشباب .

ابتسم (فارس) ، وهو يقول :

- لقد فانتى هذا .

ثم اعتدل فى وقفته ، وهو يستطرد فى حزم :
- يمكنك الخلود إلى النوم ملء جفنيك ، وسأتولى أنا مسئولية الحراسة الليلية .

تطلع إليه (مهاب) لحظة فى صمت ، ثم قال :
- وفقك الله يا فتى .

أما الشيخ ، فالتفت إلى (فارس) ، وقال فى حزم :
- كن يقظاً .

غمغم (فارس) :

- اطمئن يا عماء .

كان قول الشيخ بالذات يدهشه ، ويثير قلقه وحيرته ، فلم يحدث قط ، منذ صباه ، أن طلب منه هذا المطلب ، فى ليلة تولى فيها مسئولية الحراسة ، مهما بلغت خطورة الظروف المحيطة ..

ولكنه كتم مشاعره فى أعماقه ، واغتسل ، وتناول طعام العشاء مع الجميع ، ثم انتظر حتى أوى كل منهم إلى فراشه ، ثم اتجه إلى رهوة عالية ، واستل سيفه الفضى ، ووضعته إلى جواره ، ثم جلس يراقب النجوم فى صمت .. وكانت الغيوم قد انقشعت ، وعاد الطقس إلى سابق عهده ، وتألفت النجوم فى السماء كمصابيح مزينة ، مما خلب لبه ، وبعث فى نفسه الهدوء والارتياح ..

ولكن فجأة ، نددت إلى جواره حركة خافتة ، جعلته يحمل سيفه ، ويقفز متحفظاً ، ولكنه سمع شهقة أنثوية ، قبل أن يتبين وجه (غالا) ، وهي تقول في اضطراب :
- رويدك .. إنه أنا .

عقد حاجبيه في صرامة ، وهو يعيد سيفه إلى غمده ، قائلاً :

- ما الذى أتى بك إلى هنا ؟.. لماذا غادرت خيمتى ؟
ارتسمت على شفتيها الجميلتين ابتسامة امتنان ، وهي تقول :

- أردت أن أشكرك ، على ما فعلته من أجلى .

غمغم في جمود :

- لقد فعلت ما يتحتم على فعله .

قالت في هيام :

- وهذا يستحق الشكر .

تطلع كل منهما إلى عيني الآخر لحظة ، ثم أشاح (فارس) بوجهه ، قائلاً :

- عودى إلى خيمتك .

قالت في رجاء :

- ألا يمكننى البقاء قليلاً ؟

شعر بالكثير من القلق والتوتر فى أعماقه ، وهم برفض مطلبها ، لولا أن أضافت فى ضراعة مستكينة :
- أرجوك .

صمت بعض الوقت ، ثم قال فى صرامة :
- هذا شأنك .

قهلت أساريرها ، ولكنه تركها واقفة ، وعاد يجلس فوق الربوة ، فابتسمت لحظة ، ثم جلست إلى جواره ، وهمست :

- ألا تريد أن تعرف ، لماذا هربت من (قرطبة) ؟

قال فى لهجة جافة :

- لو أردت إخبارى لفعلت .

تنهدت ، قائلة :

- لقد أصدر الملك (فرناندو) أمراً بإعدامى .

عقد حاجبيه فى دهشة ، فأضافت بسرعة :

- من أجلك .

- من أجلى أنا ؟!

أومأت برأسها إيجاباً ، واقتربت منه أكثر ، وهي تهمس :

- نعم .. من أجلك أنت .

شعرت بتوتره لاقتربها منه على هذا النحو ، فتراجعت قليلاً ، مستطردة :

- هل تذكر قتالك مع (ماريو) ؟.. (الفارس الأسود) ؟.. أيامها طلب منى الملك أن أرسل رسالة



قالت في حماس :
- لأنني أردت أن تنتصر ..

بوساطة الحمام الزاجل ، إلى المعسكر الجنوبي ، لتحذير
الفرق الثلاث ، التي كانت في طريقها لعبور حدودكم ،
ولكنني خدعته ، وأرسلت الرسالة بوساطة حمامة أخرى ،
لا شأن لها بالمعسكر الجنوبي ، فلم يتم تحذير الفرق
الثلاث ، وعبرت حدودكم ، فأبدتموها عن آخرها .

سألها في حيرة :

- ولماذا فعلت هذا ؟

قالت في حماس :

- لأنني أردت أن تنتصر .

عقد حاجبيه مرة أخرى ، وهو يقول :

- لماذا ؟

ابتسمت في دلال ، ورفعت أناملها تتحسس وجهه ،

هامسة :

- ألم تفهم بعد ؟ ..

كانت أصابعها ناعمة ، وأنفاسها حارة ، ورائحتها

العطرية تدير رأس أعلى الرجال ، و ...

- من أين أتيت بالعطر ؟ ..

ألقي (فارس) عليها السؤال بغتة في صرامة ،

فتراجعت بحركة حادة ، وتطلعت إليه بنظرة دهشة

ساخطة ، قبل أن تقول في حدة :

- أي عطر ؟

٣ - صليل السيوف ..

شهقت الأميرة (جميلة) ، ابنة أمير (غرناطة) ،
وهي تهب من فراشها ، ووضعت يدها على صدرها ، وهي
تسعل في شدة ، فأسرعت إليها وصيفتها ، وهي تقول في
جزع :

يا بك يا مولاتي ؟ .. ماذا أصابك ؟

أشاحت الأميرة بوجهها ، لتخفي خيطاً من الدموع ،
انساب .. حنتها ، وهي تقول :

- لا شيء .. شيء .. عودي إلى النوم .

حملت الوصيفة مصباحاً ، ودنت منها قليلاً ، ثم هتفت
منزعجة :

- مولاتي .. إنك تبكين .

هتفت بها الأميرة (جميلة) :

- عودي إلى النوم .

ثم أجهشت فجأة بالبكاء ، فاحتوتها الوصيفة بين
نراعيها في حنان ، وهي تقول :

- ماذا أصابك يا بنيتي ؟ .. بل ماذا دهاك ؟ .. أهو

كابوس ثقيل ؟

تركت (جميلة) رأسها يسترخي على كتف وصيفتها ،
التي ربتها منذ وفاة أمها ، وقالت في مرارة :

- ليت كان كذلك .

هتفت بها الوصيفة في لوعة :

أشار إليها ، قائلاً في حزم :

- هذا الذي يداعب أنفي .

قالت في توتر :

- إنني أحتفظ به دائماً .

قال في شك صارم :

- عجباً ! .. لست أتخيل هارباً من حكم بالإعدام ، يفكر

في حمل زجاجة عطر معه .

قالت في عصبية :

- هذا لأنك لست امرأة .

قال في بطء :

- أو لست مخادعاً .

التفتت إليه في حدة ، وقالت :

- كيف تقول هذا ، وأنا الـ

ثم بترت عبارتها بغتة ، واتسعت عيناها ، ثم صرخت :

- احترس .

ومع الحروف الأولى لصرختها ، قفز بحمل سيفه ،

ويلتفت إلى حيث تشير وتنظر ..

وعلى ضوء النجوم ، رأى (فارس) خمسة من الرجال

الأشداء ، ينقضون عليه بسيوفهم ، وأحدهم يقفز نحوه ،

ويهوى بالسيف ..

على رأسه مباشرة .

- أ إلى هذا الحد ؟!.. أخبريني ماذا بك يا بنيتي ..
أفرغى مشاعرك في أننى أدامك الله .
بكت الأميرة لحظة ، ثم قالت :
- إنه (فارس) .

ابتسمت الوصيفة فى حنان ، وهى تقول :
- وماذا عنه ؟.. ألم يبلغك والدك أنه سيتقدم لخطبتك ؟
اعتذلت الأميرة ، ومسحت شيئاً من دموعها ، وهى
تقول :

- ولكنه لم يفعل .. لقد مضى شهر على هذا القول ، ولم
يأت (فارس) إلى هنا قط .

احتوتها الوصيفة مرة أخرى فى صدرها الحنون ، وهى
تبتسم مشفقة ، وتقول :

- وا مولاتى .. الغد آت لا ريب .. لا تتعجلى الأمور .
قالت (جميلة) فى مرارة :

- ولكن (فارس) لا يشعر بى قط .. إنه مشغول بمستقبل
(الأندلس) و (غرناطة) فحسب ، وأخشى أن .. أن ..

سألتها وصيفتها فى حنان :

- ما الذى تخشيه يا بنيتي ؟

انتحبت (جميلة) لحظة ، ثم قالت :

- أخشى أن تكون هناك أخرى .

انعقد حاجبا الوصيفة ، وهى ترند :

- أخرى ؟!

ثم ضمت (جميلة) إليها أكثر ، وهى تضيف :
- لا تجعلى هذا الخاطر يלתهمك يا بنيتي ، ما دام
لا يوجد ما يشير إليه أو ينم عنه .. ألقه خلف ظهرك
يا مولاتى ، ولن يلبث الغد أن يشرق ، ويكشف كل
الحقائق .

غاصت (جميلة) بين ذراعيها ، وهى تتمتم فى أسى :
- هذا لو جاء الغد .
نعم ..
لو جاء الغد ..

★ ★ ★

أطلقت (غالا) صرخة رعب ، وهى تشاهد السيف
الضخم ، الذى يهوى على رأس (فارس) وتصورت لحظة
أنه سيشحج الرأس إلى نصفين ، ولكن (فارس) وثب جانباً
فى مرونة ، واستقبل السيف على سيفه الفضى ، ثم أزاحه
بعيداً ، وهو يهتف :

- الآن فقدتم عامل المفاجأة أيها الحقراء .

انقضّ عليه الرجال الخمسة ، ولكنه قاتلهم كأسد
هصور ، وراح سيفه يضرب هنا وهناك ، فى سرعة وقوة
ومهارة ، فى حين جرت (غالا) نحو المعسكر ، صارخة :
- النجدة .. النجدة ..

ولكن (مهاب) كان قد هب من رقادته ، مع صرختها
الأولى ، واندفع يوازى صديقه وتلميذه فى حزم وشجاعة ..

وبدأ القتال ..

قتال عنيف شرس ، بين خمسة من فرسان قشتالة ،
المتكبرين في ثياب عربية ، وفارسين من عرب
(الأندلس) ..

ولكن الفارسين كانا يقاتلان في استماتة ، حتى أن
القشتاليين الخمسة تراجعوا أمامهم ، وأحدهم يهتف
بالأسبانية :

- إننا نقاتل وحشين .. تراجعوا يا رجال .. لقد فشل
الهجوم الليلي .

أسرعوا يفرون من أمام (مهاب) و (فارس) ، ولكن
الأخير صاح :

- لن نسمح لهم بالفرار .. أليس كذلك يا صديقي ؟

اندفع (مهاب) إلى جواده ، ووثب على متنه ، هاتفاً :

- سنطاردهم حتى آخر الدنيا .

قفز (فارس) إلى جواده بدوره ، وهو يكمل :

- وحتى آخر رمق .

انطلقا بجواديهما خلف جياد القشتاليين الخمسة ،

وتابعتهما (غالا) ببصرها لحظة ، ثم خفق قلبها في

قوة ، عندما لمحت ظلاً أسود ينطلق خلفهما ، من قلب

الظلام ، وشهقت هاتفة :

- إنه ذلك الزنجي .

أتى من خلفها صوت الشيخ الوقور ، يقول :

- نعم .. إنه (فهد) .

التفتت إليه في حركة حادة ، ورمقته لحظة بنظرة

متوترة ، ثم لم تلبث أن ابتسمت في عصبية ، وهي تقول :

- آه .. هل اسمه (فهد) ؟

أوما الشيخ برأسه إيجاباً ، وهو يرمقها بنظرة طويلة ،

ثم سألها فجأة :

- كيف عرفت خيمة (فارس) ؟

حدقت في وجهه ، وهي تقول مأخوذة :

- ماذا ؟

كّرر في هدوء :

- كيف عرفت أن الخيمة التي اتجهت إليها ، هي خيمة

(فارس) بالتحديد ؟ .. لقد طلبت منك الذهاب إلى خيمة

(فارس) ، دون أن أشير إليها ، وكانت أمامك ثلاث

خيام ، فكيف عرفت خيمته بالذات ، واتجهت إليها

مباشرة ؟

صمتت لحظة ، ثم هزّت كتفها ، وقالت في اضطراب :

- ضربة حظ .

هزّ الشيخ رأسه نفياً في هدوء ، وقال :

- كلا يا بنيتي .. إنك حتى لم تترددي .

التقى حاجباها في توتر ، وهي تقول :
- لقد رأيت جواد (فارس) إلى جوار خيمته .

قال في حزم :

- خطأ .. (رفيق) يقف دائما إلى جوار خيمتي أنا .
بدا مزيج من الغضب والتوتر على وجهها ، وهي تقول :
- ما الذي تسعى إليه بالضبط أيها الشيخ ؟ .. إنك تشك
في أمري .. أليس كذلك ؟ .. تظن أن وجودي هنا مجرد
خطأ ، للإيقاع بكم ، أو التخلص منكم .. أنت لا تثق بي ،
لمجرد أنني قشتالية .. ألم تسأل نفسك إذن لماذا صرخت ،
لأحذر فارسكم هذا ، عندما هاجمه القشتاليون ؟ .. لماذا
لم أتركهم يتخلصون منه في صمت وهدوء ، مادام هذا هو
الفرض الرئيسي لوجودي هنا ؟

ثم انفجرت باكية ، وهي تستطرد في مرارة :

- لماذا ؟ .. لماذا ؟

شعر الشيخ بشيء من الشفقة نحوها ، وغمغم :

- الواقع يا بنيتي أن ..

ولكنها حدقت بغتة في شيء ما خلف ظهره ، ثم شهقت

في قوة ..

وكانت مفاجأة جديدة ..

★ ★ ★

انطلق (فارس) و (مهاب) خلف القشتاليين في
إصرار ، وهوى (مهاب) بسيفه على حزام سرج أحدهم ،
وهو يهتف :

- رويدك يا رجل .. إلى أين ؟ .. ألا تروى لك بلادنا ؟
سقط القشتالي عن جواده ، فعاجله (مهاب) بضربة
أخرى ، بصفحة السيف ، وأسقطه فاقد الوعي ، في نفس
اللحظة التي اشتبك فيها (فارس) مع قشتاليين آخرين ،
وأطاح بسيف أحدهما بضربة قوية ، ثم طعن الثاني في
ذراعه ، وهو يقول :

- بل إن بلادنا تروى لهم ، ولهذا يسعون للسيطرة
عليها .

صرخ أحد القشتاليين :

- إنها بلادنا نحن .. أنتم استوليتم عليها .

ضربه (فارس) بسيفه ، هاتفا :

- يمكنكم أن تحاولوا ، ولكن ..

أوقفته فجأة صرخة من (مهاب) :

- رباه ! .. انظر يا (فارس) .

التفت (فارس) بسرعة ، إلى حيث يشير (مهاب) ،

ثم التقى حاجباه في شدة ..

فهناك ، حيث يقع المعسكر الصغير ، كان الأفق يصطبغ
بوهج مخيف ، يتراقص في سرعة ، مما جعل (فارس)
يهتف :

- النيران .

وجذب معرفة (رفيق) ، وانطلق معه عائدًا إلى
المعسكر ، وخلفه (مهاب) .. وراح الجوادان ينهبان
الأرض نهبا ، ومن خلفهما تعالى وقع حوافر جواد أسود ،
ذاب مع راكبه في الليل البهيم ..

وأخيرًا ، بلغوا الربوة المطلة على المعسكر ..
وهتف (مهاب) في انزعاج شديد :

- اللعنة !

كانت النيران قد اضطربت في الخيام الثلاث ، وراحت
تلتهمها بسرعة مفرعة ، وتتراقص فوقها في ظفر
وشماتة ، فصاح (فارس) :

- الشيخ .

وهبط بجواده خطوة ، فإذا بجواد (فهد) الأسود
يتجاوزهُ ، وعلى متنه الزنجر الصامت العملاق ، الذي بلغ
موضع الخيام في لمح البصر ، ثم وثب عن جواده ،
واقترح النيران المشتعلة غير آبه ، وراح يبحث عن
الشيخ ، حتى هتف به (فارس) :

- تراجع يا (فهد) .. إنه ليس هنا .

تراجع (فهد) ، والغضب يطل من عينيه عارما ، في
حين هتف (مهاب) في مرارة :

- لقد فعلوها بنا .. خدعونا .. ونحن سقطنا كالحمقى ،
عندما جذبونا لمطاردة بعضهم ، ثم هاجم البعض الآخر
المعسكر من خلفنا ، وقتلوا الشيخ .

زمجر (فهد) في غضب ، ولكن (فارس) صاح :

- لا .. إنهم لم يقتلوه ، وإلا وجدنا جثته .

صرخ (مهاب) :

- وأين تلك القشتالية اللعينة ؟ .. إنها المسنولة عن كل
هذا .. هي التي فعلت ذلك .

ولكن (فهد) تحرك فجأة ، وانقض على شجرة
قريبة ، فهتف به (فارس) :

- ماذا أصابك ؟

ورآه ينحني خلف جذع الشجرة الضخم ، ثم يجذب
جسداً ، شهق (فارس) لمرآه ، فهتف (مهاب) في
هلع :

- هل .. هل عثرت على جثته ؟

هرع (فارس) إلى حيث (فهد) ، وهو يقول :

- إنها (غالا) .

أسرع إليه (مهاب) ، ورآه يحاول إيقاظ (غالا)
 الفاقدة الوعي ، والتي لم تلبث أن تأوّهت ، وغمغمت :
 - أين أنا ؟ .. ماذا حدث ؟
 قال (فارس) في حدة :
 - كنا سنلقى عليك السؤال نفسه .
 فتحت عينيها ، وحذقت في وجهه ، قبل أن تهتف في
 ارتياح :
 - لقد هاجمونا ، وهربت أنا منهم .. الشيخ هو الذي
 طلب مني الفرار ، وحاول التصدي لهم بحكمته ووقاره ..
 ولكن .. ولكن ..
 هوى قلب (مهاب) بين ضلوعه ، وهو يقول :
 - هل قتلوه ؟
 هتفت بسرعة :
 - كلا .. إنهم لم يقتلوه .
 ثم دفنت وجهها بين كفيها ، مستطردة :
 - ولكنهم اختطفوه .. لقد رأيتهم من مخبئي خلف
 الشجرة ، وهم يفقدونه الوعي ، ثم يشعلون النار في كل
 شيء ، ويتراجعون بسرعة ، في اتجاه الغرب .
 اعتدل (فارس) ، وصاح برفيقه :
 - أحضرا بعض المشاعل .. سنطارده هؤلاء الأوغاد .

أمسك (مهاب) ذراعه ، وقال في حدة :
 - انتظر يا فتى .. ليس هكذا تؤخذ الأمور .
 ثم أشار إلى (فهد) ، مضيفاً في حزم :
 - (فهد) .
 لم يكن بحاجة إلى قول المزيد ، فقد وثب (فهد) إلى
 جواده ، واختطف قطعة من الحطب المشتعل ، وانطلق
 نحو الدغل القريب ، فهتف (فارس) :
 - ولماذا لا نتبعه ؟
 أجابه (مهاب) في صرامة :
 - دعه يتأكد من خط السير أولاً .
 ورمى (غالا) بنظرة قاسية ، وهو يستطرد :
 - لقد استقيننا كل معلوماتنا من هذه القشتالية .
 اتسعت عينا (غالا) ، وقالت في زعر :
 - هل تشك في أمري ؟
 أجابها (مهاب) في غلظة :
 - بالتأكيد .. إننا لم نر القشتاليين على هذا النحو
 الانتحاري من قبل ، فيجتازون حدودنا ، ويتوغلون في
 أرضنا ، حتى يبلغوا هذا المعسكر .. لماذا لم يفعلوا هذا
 إلا بعد قدومك ؟ .. أليس لديك تفسير منطقي ؟
 شحب وجهها ، وانكمشت في موضعها ، وأدارت

عينها إلى (فارس) ، وكأنها تستجد به ، ولكن
(فارس) قال في صرامة :
- إننا ننتظر التفسير .

ارتجفت شفتها ، وهمت بقول شيء ما ، ولكن (فهد)
ظهر في اللحظة نفسها ، وأشار إشارة ما إلى (مهاب) ،
فانعقدا حاجبا هذا الأخير ، وهو يتمم :
- اللعنة !.. لقد محوا كل آثارهم .

قالت (غالا) في توتر شديد :
- صدقوني .. لقد اتجهوا نحو الغرب .. الشمال الغربي
بالتحديد .

التفت إليها (مهاب) في حدة ، وهو يقول :
- ولكنك لم تمنحينا التفسير بعد .. لماذا جاء
القشتاليون إلى هنا ؟

عادت تتكلمش ، قائلة :
- إنهم يطاردونني ؟
قال (فارس) :
- وهل يبذلون كل هذه المخاطرة ، من أجل استعادتك
فحسب ؟

ارتجف صوتها ، وهي تقول :
- ربما ، فأنا أعلم الكثير .. الكثير جدًا .

سألها (مهاب) في غلظة :
- وما الذي تعلمينه بالضبط ؟
خفت صوتها ، وارتجفت شفتها بشدة ، وهي تقول :
- الخطة .. خطة الهجوم على (غرناطة) .
وتوالت المفاجآت كالسيل ..

★ ★ ★



٤ - الخطبة ..

تراقصت أضواء المصباح الصغير، الذي تحمله وصيفة الأميرة (جميلة)، وهي تعدو به عبر رواق جناح الأميرة، وتعالى صوت أنفاسها على نحو واضح، وهي تتوقف أمام حجرة نوم الأميرة، وتلهث مغممة في انفعال :
- رحماك يا إلهي !.. ثرى ماذا ستفعل تلك المسكينة، عندما يصلها الخبر .. أرجو أن أكون أول من يحمل إليها التفسير ..

دلفت باب الحجرة في رفق وحذر، ثم خفق قلبها في عنف، عندما رأت الأميرة جالسة، إلى جوار نافذة حجرتها المفتوحة، تتطلع في صمت وشحوب إلى شروق الشمس، فهتفت في لوعة :
- مولاتي :

لحيل إليها أن الأميرة قد تجمّدت، أو استحالت إلى تمثال من المرمر الوردى، عندما لم تستجب قط لندائها، فهرعت إليها، تتحسّس شعرها الأسود الناعم الطويل، وهي تكرر في خفوت :

- مولاتي :
انتبهت في هذه اللحظة فقط إلى ذلك الخيط من الدموع، الذي يسيل من عيني الأميرة، وهي تقول في مرارة :
- لقد رأيت كل شيء يا (نذيرة) .



لحيل إليها أن الأميرة قد تجمّدت، أو استحالت إلى تمثال من المرمر الوردى، عندما لم تستجب قط لندائها ..

شهقت الوصيفة ، وهى تقول :

- كل شيء !!

ثم استدركت بسرعة وقلق :

- ولكن الأمور لا تؤخذ بظواهرها يا مولاتى .

قالت الأميرة ، وكأنها لم تسمعها :

- رأيت كل شيء .. ويا ليتنى ما رأيت .. لقد استيقظت

مبكرة ، وصليت صلاة الفجر ، ثم فتحت النافذة ، وجلست

أراقب الشروق كعادتى ، عندما رأيت يدخل إلى ساحة

القصر ..

والتفتت فى ببطء إلى الوصيفة ، متابعة فى صوت باك

بانس :

- رأيت (فارس) يا (نذيرة) .. رأيت وخفى قلبى

لمراه ، وكدت أهتف باسمه ، وأهرع إليه ، متجاهلة كل

التقاليد والأعراف ، والقواعد التى لقننى إياها أبى ، من

شدة شوقى إليه ولهفتى عليه ، ولكن ..

انهمرت الدموع أكثر وأكثر ، وهى تستطرد :

- ولكننى رأيتها معه ..

خفى قلب الوصيفة مرة أخرى فى لوعة ، والأميرة

تعود فتتطلع إلى الساحة الخالية ، وكأنها تستعيد معها

ذكرى المشهد ، الذى أدمى قلبها :

- لم أستطع تبين ملامحها جيدًا ، مع ضوء الشروق

الخافت ، ولكن كان من الواضح أنها شقراء وجميلة ، وأنه

يوليها اهتمامًا عظيمًا .

هتفت الوصيفة :

- أنا رأيتها يا مولاتى .

التفتت إليها الأميرة فى سرعة ، وهى تقول :

- رأيتها ؟

ثم تعلقت بها ، مستطردة فى لهفة تمتزج بشيء من

الرجاء والضراعة :

- صفيها لى يا (نذيرة) .. أخبرينى واصدقينى

القول .. هل يحبها ؟ .. لماذا أتى بها إلى هنا ؟ .. لماذا

يا (نذيرة) ؟

أجابتها الوصيفة فى سرعة :

- إنها (غالا) .. وصيفة الملكة القشتالية

(إيزابيلا) .

انتفض جسد الأميرة فى عنف ، وهى تهتف :

- (غالا) ؟ .. تلك اللعينة التى أذاقتنى عذاب الدنيا

كله ، عندما كنت أسيرة فى (قرطبة) ؟ ! (*)

ثم اتسعت عيناها ، وهى تستطرد فى توتر :

- ولكن ما صلة (فارس) بامرأة مثل (غالا) ؟ ..!

لماذا أتى بها إلى هنا ؟ .. ولماذا يحيطها باهتمامه ؟

أمسكت الوصيفة كتفها ، وهى تقول :

(*) راجع قصة (الأميرة الأسيرة) .. المغامرة رقم (٢) .

- هذا ما أتيت لأبلغك إياه يا مولاتي .. لقد علمت أن
(غالا) هربت من (قرطبة) ، وحاولت أن تحتوى
بمعسكر (فارس) ، ولكنها تسببت في إحراق المعسكر ،
واختطاف الشيخ ، و (فارس) أحضرها إلى هنا ، ليمنح
مولاي الأمير فرصة استنطاقها واستجوابها ، لمعرفة
ما لديها ، في حين انطلق (فارس) لاستعادة الشيخ
ومحاولة إنقاذه من مختطفيه .
هتفت (جميلة) في لهفة :
- حقاً ؟!

ثم لم تلبث أن عقدت حاجبيها ، وهي تقول :
- ولكن لماذا لجأت إلى (فارس) بالذات ؟ .. أى سر
تخفيه ؟

لم تجب الوصيصة سؤالها ، فبقى معلقاً في سماء
الحجرة ، وفي عقل (جميلة) ، الذى راح يعمل بأقصى
قوته ، بحثاً عن جواب شاف ..
أى سر تخفيه (غالا) ؟ ..
أى سر ؟ ..

★ ★ ★

انطلق جوادا (فارس) و (مهاب) ينهبان الأرض
نهباً ، مع مشرق الشمس ، وبدا (فارس) شديد الانفعال ،
وهو يحث جواده على الإسراع ، هاتفا :

- هيا يا (رفيق) .. هيا .. لا تسمح لهم بالابتعاد
كثيراً .

صاح به (مهاب) :

- رويدك يا فتى .. المسافة من هنا إلى (شنتفى)
طويلة ، ولو بذلت الجياد قصارى جهدها منذ البداية ،
ستنهار قبل أن نبلغ منتصف الطريق .

قال (فارس) فى توتر :

- ولكن هؤلاء الأوغاد يسبقوننا بساعتين على الأقل ،
ولو لم نلحق بهم قبل أن يبلغوا (شنتفى) ، سيمسبقوننا
إلى عبور الحدود ، وتصبح مهمتنا أكثر صعوبة فى
(قرطبة) .

هتف (مهاب) لاهثاً :

- حتى جيادهم ستحتاج إلى الراحة .. اطمئن .
مضت لحظات من الصمت ، والجياد تواصل طريقها ،
ثم قال (مهاب) :

- هل تصدق تلك القشتالية ؟

أجابه (فارس) :

- قصتها تبدو معقولة يا صديقى ، فهى تقول : إن
القشتاليين قد قرروا بدء هجوم جديد ، يحاولون به
الاستيلاء على ما تبقى لنا من (الأندلس) ، وأنهم

قد اختاروا بلدة (شنتفى) لبدء الهجوم ؛ نظراً لقربها من حدودهم ، ولوجود حاكم موال لهم هناك ، وهو (جهلان ابن الراضى) ، الذى سيتيح لهم عبور الحدود ، وتنظيم فرقهم ، وسيمدهم بالأموال والذخائر .

مط (مهاب) شفتيه ، وقال :

- أشعر بالألم والمرارة ، كلما بلغنى أمر عربى خانن .

تنهد (فارس) ، وقال :

- لولا أمثاله ما فقدنا ثلاثة أرباع (الأندلس) حتى الآن .. ثم إن (جهلان) ليس عربياً خالصاً ؛ فأمه يهودية من أصل فرنسى .

عاد (مهاب) يمط شفتيه ، ثم قال :

- المهم .. هل تصدق قصة تلك القشتالية ؟

صمت (فارس) لحظات ، ثم قال :

- ليس أمامنا خيار آخر ؛ فقصتها تبدو معقولة ، وهى تشير إلى أن عملاء (قرطبة) ، الذين اختطفوا شيخنا ، سيحاولون نقله إلى (شنتفى) ، حتى تصل فرقهم ويصل قانتهم .. وهذا يعنى أن مهمتنا مزدوجة ، فلن يكون علينا استعادة شيخنا فحسب ، ولكن منع الهجوم القشتالى أيضاً .

عقد (مهاب) حاجبيه لحظات ، قبل أن يقول :

- أخشى ما أخشاه أن ..

ثم بتر عبارته ، وهتف فجأة :

- انتظر .

جذب (فارس) عنان جواده بحركة تلقائية ، فأطلق (رفيق) صهيلاً طويلاً ، وهو يضرب قائمته فى الأرض بشدة ، حتى توقف تماماً ، فوثب (فارس) عن متنه ، وسأل (مهاب) ، الذى سبقه إلى الهبوط عن صهوة جواده :

- ماذا وجدت ؟

انحنى (مهاب) يفحص الأرض فى اهتمام ، ثم قال :
- أعتقد أننا نسير على الطريق الصحيح ، فهنا هى ذى آثار أربعة جياد ، تنطلق فى اتجاه الشمال الغربى ، وحوافر أحد الجياد أكثر عمقاً من الحوافر الأخرى ، مما يوحي بأنه كان يحمل ثقلًا زائدًا .. وأعتقد أن هذا الثقل الزائد هو الشيخ ، فأحدهم يحمله على جواده .

بدا الارتياح على وجه (فارس) ، وهو يقول :

- حمداً لله .

ولكن الارتياح لم يلبث أن تلاشى ، عندما رأى انعقاد حاجبيه (مهاب) ، وهو يعيد فحص الآثار ، فسأله :

- هل من مزيد ؟

تنهد (مهاب) ، وهز رأسه لحظة ، ثم قال :

- لقد توقفوا طويلاً هنا ، ولست أدري لماذا ؟

أجابه (فارس) فى حذر :

- ربما للحصول على قسط من الراحة .

أشار (مهاب) إلى الأرض المقفرة من حوله ، وهو يقول :

- هنا ؟!.. حيث لا ماء ولا طعام ولا مكان للراحة !..

لا .. لا أعتقد هذا .. لقد توقفوا لسبب آخر .

عقد (فارس) حاجبيه ، وهو يغمغم :

- مثل ماذا ؟

هز (مهاب) رأسه ، وغمغم :

- لست أدري .

قالها وهو يدير عينيه فيما حوله فى اهتمام ، ثم هتف فجأة :

- انظر يا (فارس) .. هناك .

أدار (فارس) رأسه فى سرعة ، إلى حيث يشير

(مهاب) ، ووقع بصره على حرملة الشيخ ، المعلقة على

غصن شجرة قريبة ، ورأى (مهاب) يندفع نحوها ، وهو

يوصل هتافه :

- إنها حرملة الشيخ .. أنا أعرفها من بين ألف حرملة

أخرى .

وانعقد حاجبا (فارس) فى شدة لحظة ، ثم هتف بغتة :

- ربّاه !

وصاح فى (مهاب) :

- (مهاب) .. انتظر يا صديق .. إنه ..

وقبل أن يتم عبارته ، شعر (مهاب) بالأرض تميد

تحت قدميه ، ووجد نفسه يهوى فى حفرة عميقة ..

ولم يكن الخطر كامناً فى عمقها فحسب ، ولكن فى تلك

الحراب الثلاث ، التى انغrust قواعدها فى العمق ،

واتجهت أطرافها المسنونة إلى أعلى ..

إلى حيث يهبط جسد (مهاب) ..

★ ★ ★

استيقظ الملك (فرناندو) مبكراً ، على غير العادة ،

وجلس فى شرفة قصره ، يراقب السماء فى صمت ، دون

أن يمس كأسه ، مما أثار اهتمام وقلق الملكة (إيزابيلا) ،

فاتجهت بدورها إلى الشرفة ، ووقفت طويلاً خلفه ، تتطلع

إليه فى صمت ، ثم همست :

- هل تشفق إليها ؟

جفل الملك لحظة ، على الرغم من انخفاض صوتها ،

الذى اقتحم عليه خلوته ، ثم التفت إليها فى ببطء ، وتطلع

إليها لحظة فى ضيق ، قبل أن يعود للتطلع إلى السماء ،

قائلاً :

- ماذا قلت ؟

كررت في شيء من العصبية :
 - هل تشناق إلى (غالا) ؟
 ابتسم في سخرية ، دون أن يجيب ، فاقتربت منه أكثر ،
 وهي تقول :
 - لا تظنني ساذجة أو غبية .. أنا أعرف ما بينكما
 إنني أشم عطرها في حجرتك ، و ...
 قاطعها في لهجة تهكمية :
 - وهل يصح أن تتحدث (إيزابيلا) النقية ، بمثل هذا
 القول ؟
 قالت في حدة :
 - سل نفسك يا ملك (قشتالة) .. هل يصح أن ينحدر
 الملك الورع إلى هذا الدرك ؟
 ابتسم وهو يقول :
 - جمال (غالا) يستحق كل التضحيات .
 قالت غاضبة :
 - بل دناءة نفسك هي التي تبيع لك كل الموبقات .
 انعقد حاجباه في شدة ، ثم قال وهو يضغط كل حرف
 من حروف كلماته :
 - من حسن حظك أنني أنتظر حدثاً هاماً الآن ، وإلا
 لقننك درساً قاسياً ، من أجل ما تلفظت به الآن .



ولم يكن الخطر كامناً في عمقها فحسب ، ولكن في تلك الحراب
 الثلاث ..

هتفت في استنكار :

- هل تجرؤ ...

بثرت عبارتها بغتة ، عندما رآته يهبط من مقعده ،
وتتألق عيناه وهما تتابعان حمامة بيضاء صغيرة ، عبرت
سماء ساحة القصر ، قبل أن تهبط عند برج الحمام ، في
الركن الشرقي من القصر ، وأدركت على الفور أن هذه
الحمامة تحمل أنباء بالغة الخطورة ..

وفي لهفة ، هتف الملك :

- أخيراً يا مليكتي .

واندفع نحو منضدة قريبة ، والتقط كأسه من فوقها ،
وألقي محتوياته في حلقه دفعة واحدة ، قبل أن يستطرد
بوجه محتقن :

- لقد نجح هذا الجزء من خطتي .. نجح تماماً .

سألته في حذر :

- أية خطة ؟

فهقه ضاحكاً بشدة ، وصب لنفسه كأساً أخرى ، رفعها
عالياً ، وهو يقول :

- الخطة التي ستفتح لنا الطريق يا مليكتي .

وبرقت عيناه في شدة ، وهو يستطرد :

- الطريق إلى (غرناطة) .

وانطلقت من أعماقه ضحكة أخرى مجلجلة ..

★ ★ ★

انتفض جسد (فارس) كله ، مع تلك الصرخة ، التي
أطلقها (مهاب) ، عندما سقط في الحفرة العميقة ..

صرخة تحمل الدهشة ، والألم في آن واحد ..
وعلى الرغم من أن (فارس) لم ير ما تحويه الحفرة ،
إلا أنه اندفع نحوها بأقصى سرعة ، واتسعت عيناه في
ارتياح ، وهو يحنق داخلها ..

كان (مهاب) قد سقط داخل الحفرة ، وحاول الالتصاق
بجدارها ، لتفادي الحراب المصوبة إليه ، إلا أن إحدى
الحراب انغrust في ساقه اليسرى ، في حين مزقت ثانية
قميصه ، عند منتصف الصدر تماماً ، ولوئته بدماء جرح
بسيط أحدثته به ..

وهتف (فارس) في انزعاج :

- (مهاب) .. ماذا أصابك يا رجل ؟

انتزع (مهاب) الحربة من ساقه ، وهو يقول في ألم :

- اطمئن يا فتى .. لم يحدث ما لا يمكن علاجه .

وتطلع إلى الحربتين الأخريين ، قبل أن يضيف :

- ولكن ساعدني في الخروج من هنا ، وسندرس أمر

العلاج فيما بعد .

انحنى (فارس) ، يمد له يده ، وهو يقول :

- تشبث بيدي يا صديقي .

٥ - خطوة بخطوة ..

داعب (محمد بن الأحمر) ، أمير (غرناطة)
و (الأندلس الصغرى) لحيته ، وهو يتطلع مليًا إلى
(غالا) ، قبل أن يقول فى هدوء رصين :
- ما تقولينه معقول للغاية يا بنيتى ، ف (شنتفى) هى
بالفعل أقرب النقاط إلى حدود القشتاليين ، ولست أثق قط
بحاكمها (جهلان) ، ولكن هل تعلمين متى يتم الهجوم
المرتقب ؟

أجابته (غالا) على الفور :

- فى الصباح التالى لاكتمال القمر يا مولاي .. لقد
سمعت الملك (فرناندو) يقول : إنه سيهاجم بثلاث فرق
فى البداية .. فرقتان من الشرق والغرب ، والثالثة فى
المقدمة ، ثم يقوم بحركة التفاف ، ويدعم وجوده بفرقتين
أخريين من الشمال .

زوى (ابن الأحمر) ما بين حاجبيه ، وهو يسألها :
- هل تفهمين شيئًا فى التخطيط الحربى يا بنيتى ؟
هزت رأسها نفياً ، وهى تجيب :

- مطلقًا يا مولاي .. إننى أرئد ما سمعته فحسب .
تضاعف انعقاد حاجبيه ، وعاد يداعب لحيته لحظات
أخرى ، ثم قال :

أمسك (مهاب) يد (فارس) ، وهو يقول فى حلق :
- هؤلاء الأوغاد توقفوا ليصنعوا لنا فخًا .
قال (فارس) ، وهو يجذبه بكل قوته :
- سنجعلهم يدفعون الثمن ، عندما نصل إليهم .
دفع (مهاب) قدمه اليمنى فى جدار الحفرة ، ليعاون
(فارس) على رفعه إلى أعلى ، وهو يقول :
- المهم أن ترفعى بحذر يا فتى ، فلو أفلتت يدي ،
سأسقط فوق الحربتين الأخريين ، وتنسى أمر علاجى إلى
الأبد .

تمتم (فارس) ، وهو يجذبه فى قوة :
- اطمئن .. لن أدعك تسقط بإذن الله .
ولكن فجأة ، أطلق (رفيع) صهبلًا عاليًا ..
والتفت (فارس) فى سرعة إليه ..
وارتفع حاجباه فى دهشة وتوتر ..
فعلى بعد ثلاثة أمتار منه ، كان هناك رجلان يندفعان
نحوه ، وكل منهما يرفع سيفه ، وينقض به عليه ..
وكان على (فارس) أن يختار ..
حياته أو حياة (مهاب) ..
وما من بديل ثالث .

★ ★ ★

- حسن يا بنيتي .. عودي إلى جناح الحريم ،
وسكر من وفادتك ، ويمنحك جل رعايتهم وعنايتهم ،
ولك مطلق الحرية في التجول حيثما تشائين .

انحنى أمامه في خنوع ، ثم سارت بين وصيفتين من
وصيفات القصر إلى جناح الحريم ، ولم تك تكتفى ، حتى
مال الأمير على وزيره ، وقال :

- ما رأيك فيما سمعته منها ؟

أجاب الوزير في اهتمام :

- لو أنها بالفعل تجهل كل شيء عن التخطيط الحربى ،
فروايتها صادقة من دون شك .

هز الأمير كتفيه ، وقال :

- ومن أين لو صيغة مثلها معرفة هذه الأمور ؟

قال الوزير :

- فى هذه الحالة يتحتم علينا أن نعد العدة لمواجهة
الجيش القشتالى يا مولاي .

تنهّد الأمير وقال :

- مواجهة خمس فرق قشتالية .. آه .. (إننا نحتاج إلى
جيش كامل .

أوما الوزير برأسه موافقا ، وقال :

- هذا صحيح يا مولاي .. (إننا قد نحتاج إلى ثلاثة أرباع

جيشنا ، ولكن من حسن طالعنا أننا كشفنا هذا الأمر ،
وعلمنا أين تتجه نية القشتاليين للهجوم .

صمت الأمير لحظات مفكرا ، ثم قال :

- نعم .. لقد علمنا .

وطال صمته مرة أخرى ، وهو يداعب لحيته فى تفكير
عميق ، قبل أن يقول :

- على أى حال ، ما زال أمامنا وقت لاتخاذ القرار ..

إنهم سيهاجمون بعد خمس ليال ، والجيش يحتاج إلى
يومين فحسب ، لبلوغ (شنتفى) .. ومن يدري .. ربما
وصلتنا أخبار تأكيدية ، قبيل هذا الموعد .. ربما .

وعاد إلى صمته وتفكيره العميقين ..

★ ★ ★

كان الموقف معقّدا بحق ..

بل شديد التعقيد ..

ف (فارس) يجذب (مهاب) إلى خارج الحفرة ، التى
تبرز فى قاعها حربتان ، فى تحفز تام لاختراق أول جسد
يهوى إليها ، والرجلان يهاجمانه من الخارج ، وسيفاهما
ينقضان عليه بلا رحمة ..

وكان على (فارس) أن يتحرك ..

وبأقصى سرعة ..

ودون تردد ، اكتفى (فارس) بيده اليسرى ، الممسكة بيد (مهاب) ، ووثبت يده اليمنى تستل سيفه ، دون أن ينهض من مكانه ..

وهتف أحد القشتاليين ساخرًا .

- سنقتلك راكعًا أيها العربي .

قالها وهو يلوح بسيفه ، ليهوى به على عنق (فارس) ، فصرخ (مهاب) ، وهو يحاول دفع جسده إلى أعلى :
- أيها الأوغاد .

ولكن (فارس) ضرب بسيفه في قوة ، فأصاب ساق القشتالي ، الذي صرخ في ألم ، وهو يسقط أرضًا ، وأطلق سبًا ساخطًا ، فانقض زميله على (فارس) بكل غضبه وسخطه ، وهو يصرخ :

- لن تفعلها مرة ثانية أيها العربي ..

وكان القشتالي على حق في قوله هذا ..

(فارس) لن يفعلها ..

بل لا يمكنه أن يفعلها ؛ فالرجل بهاجم من زاوية صعبة ، وعسيرة المنال ، وجسد (مهاب) يتناقل مع مرور الوقت ، والوضع الذي يتخذه فارس معقد ، و ...

ورفع الرجل سيفه ، وهو يصرخ بكل قوته :

- خذها مني أيها العربي .. خذها واذهب إلى الجحيم ، الذي ..

وفجأة ، أطلق الرجل شهقة قوية ، بتر بها عبارته ، وجحظت عيناه في شدة ، وارتجفت قبضته ، ثم ترنح ، وسقط سيفه عند قدمي (فارس) ، قبل أن يهوى الرجل إلى جواره جثة هامدة ، انفرس سهم فيها من الظهر ، في موضع القلب تمامًا ..

واتسعت عينا (فارس) لحظة في دهشة ، ثم رفع عينيه بسرعة إلى ربوة بعيدة ، وهتف في ارتياح :
- (فهد) ..

كان الزنجي الصموت يعيد قوسه إلى كتفه ، ثم يجذب عنان جواده ، ويعود ليختفي خلف الربوة ، وكأنما اكتفى بمهمته المباشرة المحدودة ..

أما (فارس) ، فقد استجمع قواه ، وجذب (مهاب) إلى خارج الحفرة في قوة ، وهو يهتف :

- إنه (فهد) يا (مهاب) .. (فهد) كالمعتاد .

توتر القشتالي المصاب في شدة ، وردد في عصبية :
- اللعنة .. لقد نسينا الزنجي .

ودفع جسده إلى الأمام ، في محاولة لاستعادة سيفه ،

الذى سقط مع سقوطه ، ولكن (فارس) وثب نحوه ،
وضرب السيف بسيفه ، فأطاح به بعيداً ، وهو يقول :
- هيهات يا رجل .. سبق السيف العذل .
ثم وضع نصل السيف على عنق الرجل ، وهو يقول :
- والآن ، أعتقد أنك ستجيب بعض الأسئلة ، التى
سألقبها على مسامعك .

قال الرجل فى حلق :

- اذهب إلى الجحيم .

جلس (مهاب) يضغط جراحه ، وهو يقول :

- اقتله فوراً ، ما دام يصر على الصمت .

ولكن (فارس) ، قال فى صرامة :

- سأمنحه فرصة واحدة .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يسأل الرجل :

- أين الشيخ ؟.. كيف نجده ؟

مط الرجل شفتيه ، وهو يشيح بوجهه فى صرامة ،

فانقض عليه (فارس) فجأة ، وانتزعه من مكانه ،

وجذبه فى قسوة إلى الحفرة ، وصاح الرجل :

- مهلاً أيها العربى .. إنك تؤذى ساقى المصابة .

ولكن (فارس) أمسكه من قميصه فى قوة ، وأمال

جسده نحو الحفرة ، بحيث لا يمنعه من السقوط فيها سوى

قبضة (فارس) الممسكة به ، وهو يسأله فى صرامة :

- أين شيخنا ؟.. وكيف يمكننا العثور عليه ؟

تصبب عرق غريز على وجه الرجل ، وقال :

- إنك .. إنك لن تفعل .

رفع (فارس) سيفه ، ومزق به جزءاً من قميص

الرجل ، وهو يقول فى برود :

- أتؤمن بهذا حقاً ؟

صرخ الرجل ، وهو يرمى الحربتين المسنونتين بنظرة

رعب :

- لا .. لا تفعل .

وزمجر (مهاب) ، قائلاً :

- لا تضع الوقت يا فتى .. هيا .. ألقه فى الحفرة

ولنواصل طريقنا .

صرخ الرجل :

- لا .. سأخبركما بكل ما تريدانه .. زميلان يحملان

الشيخ إلى (شنتفى) ، حيث سيحتفظان به سجيناً فى قبو

قصر حاكمها (جهلان) حتى هتف به (فارس) :

- حتى ماذا ؟

لوح الرجل بذراعيه ، هاتفاً فى ارتياح :

- لا .. لا يمكننى إخباركما .

ونفض (مهاب) واقفاً ، وقد انتهى من تضميد جرح

ساقه ، وقال :

فليكن .. إنك لم تخبرنا بما كنا نجهله .

جذب (فارس) الرجل ، وهو يقول :

- وهذا يكفيني .

لهث الرجل لحظة ، من فرط التوتر والانفعال ، ثم ألقى

نظرة على زميله الصريع ، وغمغم في سخط ناغم :

- ولكته لا يكفيني .

ودفع يد (فارس) بعيدا بغتة ، وهو يستل خنجرًا مخفيًا

في حزامه ، ويصرخ :

- لن يكفيني سوى قتلك أيها العربي .

تراجع (فارس) بحركة سريعة ، وحاول الرجل

الاتقياض عليه ، إلا أن طرف الحفرة ، الذي يستند إليه ،

انهار تحت قدميه بغتة ، فصرخ في ارتياح :

- لا .. النجدة .

اندفع (فارس) نحوه ، محاولاً إنقاذه ، إلا أنه هوى

في الحفرة ، وأطلق صرخة مروعة ، عندما اخترقت

الحربتان ظهره ، ونفذتا من بطنه ، وقتلتاه على الفور ..

وفي أسى ، غمغم (فارس) :

- لقد قتل نفسه .

صعد (مهاب) إلى صهوة جواده، وهو يقول في صرامة:

- كان يستحق هذا .

وثب (فارس) بدوره على متن جواده ، دون أن يعلق

بحرف واحد ، وعاود الاثنان انطلاقهما نحو الهدف ..

نحو قصر حاكم (شنتفى) ..

★ ★ ★

أريد أن أفهم ما يحدث ..

نطقت الملكة (إيزابيلا) هذه العبارة في صرامة

شديدة ، تحمل رائحة الإصرار والعناد ، ولكن الملك

(فرناندو) صب لنفسه كأسًا من الخمر في هدوء ، وحمله

إلى الشرفة ، وهو يطالع الرسالة التي وصلتته منذ قليل ،

وقد تجاهل عبارتها تمامًا ، فاتجهت إلى الشرفة بدورها ،

وقالت في حدة :

- هل أصيب الملك بالصمم ، في الآونة الأخيرة ؟

أجابها ساخرًا :

- نعم .. فيما يختص بالعبارات السخيفة .

انعقد حاجباها في غضب ، وهي تقول :

- لقد تجاوزت حدودك .

قال متهمًا :

- حقًا ؟

صاحت به فى صرامة :

- نعم أيها الملك .. لقد تجاوزت حدودك حقًا ، ونسيت
أننى ملكة (قشتالة) و (ليون) ، وأن نصف الجيش ،
الذى تعده لمقاتلة العرب ، واستعادة مجد (الأندلس)
المفقود ، يدين لى شخصيًا بالولاء ، وبإشارة واحدة منى ،
يمكنه أن يتراجع وينسحب ، ونتركك وحدك بنصف جيش ،
لتواجه جيوش العرب كلها .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يوليها ظهره ، ومضت
لحظات من الصمت ، قبل أن يرسم على شفتيه ابتسامة
مصطنعة ، ويلتفت إليها ، قائلاً :

- يا عزيزتى (إيزابيلا) .. كيف يمكن أن تتوتر
الأمور بيننا إلى هذا الحد ؟
قالت فى غضب :

- يمكنك أن تسأل نفسك .
استدار إليها بجسده كله ، وهو يرسم تلك الابتسامة على
وجهه ، وقال :

- بل أنت تضخمين الأمور دون داع يا عزيزتى .. إنه
أمر بسيط ، وسأخبرك به حتمًا .
وناولها الرسالة مستطردًا :

- ها هى ذى الرسالة .. رجالنا يذكروننى أنهم نجحوا



ولكن الملك (فرناندو) صبّ لنفسه كأسًا من الخمر فى هدوء ، وحمله
إلى الشرفة ، وهو يطالع الرسالة التى وصلته منذ قليل ..

في مهمتهم ، وأنهم في طريقهم مع الوزير القرطبي
السابق إلى (شنتفي) ، كخطوة أولى في خطة معقدة ،
وضعت أنا تفاصيلها بنفسى خطوة خطوة .

سألته في اهتمام حذر :

- أية خطة ؟

صب كأسًا أخرى من الخمر ، وناولها إياها ، وهو يقول
مبتسمًا :

- الأمر ليس بهذه البساطة .. إننا نحتاج إلى ساعة على
الأقل ، لأشرح لك خطتى بكل تفاصيلها .

أزاحت يده جانبًا ، وهي تقول في صرامة :

- أنت تعرف أنني لا أشرب الخمر .

ضحك ، قائلاً :

- آه .. لقد نسينا .. أنت (إيزابيلا) القديسة الورعة .

لم ترق لها سخريته ، فعادت تعقد حاجبها ، إلا أنه

استدرك في سرعة :

- ولكن هذا أفضل بكثير ، فالخمر تذهب العقل وتزعزع

الفكر .. والآن .. هل ترغبين في معرفة خطتى .

قالت في لهفة :

- بالتأكيد .

ارتشف رشفة من كأسه ، وهو يقول :

- دون الدخول في التفاصيل ، يكفي أن تعلمي أن خطتى

ستحمل للعرب مفاجأة .

وبرقت عيناه ، وهو يستطرد :

- أكبر مفاجأة في حياتهم .

وأطلق ضحكة مججلة أخرى :



٦ - حياة القصور ..

« وصلوا يا سيدي .. وصلوا ،
هتف خادم القصر بهذه العبارة ، وهو يعدو عبر البهو ،
نحو سيده (جهلان) ، الذي انتفض فوق مقعده ، وهو
يقول :

- حقا ؟! .. استعدوا لاستقبالهم إذن .

وجرى بدوره إلى الشرفة ، التي تطل على ساحة
القصر ، ورأى جوايين يعبران البوابة الكبرى إليها ، وعلى
متن أحدهما فارس ومشوق القوام ، صارم الملامح ، في
حين يستقر رجلان على صهوة الجواد الثاني ، وأحدهما
مقيّد المعصمين ، مكّم الفم ، تنهد في ارتياح ، قائلا :
- أخيرا .

وأسرع يستقبل الفارسين ، وهما ينزلان الشيخ ،
واستقبل صاحب الملامح الصارمة ، وهو يهتف في
حرارة :

- مرحبًا أيها الفارس (خوان) .. أرى أن مهمتكم قد
كملت بالنجاح .

رمقه (خوان) بنظرة ازدراء ، وهو يقول :

- وهل كنت تشك في ذلك ؟

هتف (جهلان) :

- مطلقا .. مطلقا يا سيّد (خوان) .. ولكن .. هل .. هل ..

وخفض صوته ، مستطرذا في قلق :

- هل رأيكم أحد ، وأنتما تأتيا إلى هنا ؟

أجاباه (خوان) في حزم :

- كفى قلقًا يا رجل .. إننا نرتدى ثيابًا عربية ، وكل

شيء يسير على ما يرام .

قال في توتر :

- حسن .. حسن .. انقلا الوزير بسرعة إلى القبو ..

هنا .

ولم تمض دقائق ، حتى كانوا يقيدون الشيخ داخل
القبو ، ويرفعون عنه كمامته ، فتطلع في هدوء إلى

(جهلان) ، وقال :

- إذن فما زلت تذكرني يا (جهلان) .

ابتسم (جهلان) في تشف ، وهو يقول :

- وكيف أنساك أيها الوزير ؟ .. ألسنت من حرمنى الفوز

بإمارة (بمطة) ذات يوم ؟

قال الشيخ في رصانة :

- أظن هذا الموقف يؤكد أنني كنت على حق .

انعقد حاجبا (جهلان) ، وهو يقول :
- اخرس أيها الوزير .. لسنا الآن في قصر أميرك
المغرور في (قرطبة) .. إنك هنا في قبضتي ، وتحت
رحمتي .

لم يبد الخوف على وجه الشيخ ، وهو يقول :
- كلنا تحت رحمة الخالق (عز وجل) .
اندفع (جهلان) نحوه ، وجذبه من قميصه ، قائلاً :
- بل أنت هنا في قبضتي أيها الشيخ ، وأنا وحدي أملك
حياتك أو موتك .

قال الشيخ في هدوء :
- ربما لا يستمر هذا الوضع إلى الأبد .
أطلق (جهلان) ضحكة عصبية ، وهو يقول :
- لو أنك تنتظر محاولة إنقاذ من رفاقك فأنت واهم ..
لو حضر جيش (ابن الأحمر) كله ، لما أمكنه إنقاذك ..
هل تعرف لماذا ؟

ثم تراجع ، ولوح بذراعيه ، هاتفاً :
- إنك داخل قبر مغلوق ، ليس له سوى مدخل واحد ،
يحرسه عشرة من أقوى وأشد رجالي ، وهذه الفتحات التي
تراها في الجدار ، تتصل مباشرة بتلك البركة الكبيرة ، في
ساحة القصر ، ويكفي جذب ذراع معدنية صغيرة ، لتتفتح

أبواب سرية في قاع البركة ، وتتدفق مياه البركة كلها إلى
القبر ، فتغمره كله ، وتغرقه داخله كالغار الحبيس .
أدرك الشيخ أن ما وصفه (جهلان) يعني أنه في
موقف حرج بالفعل ، إلا أنه أخفى قلقه في أعماقه ،
وحافظ على هدوء ملامحه وصوته ، وهو يقول :

- الله (سبحانه وتعالى) أقوى من الجميع يا (جهلان) .
بدا لحظة أن (جهلان) سينفجر في وجه الشيخ ، لولا
أن قال (خوان) في صرامة :
- كفى .. لا وقت لهذه المهاترات السخيفة .
انعقد حاجبا (جهلان) لحظة ، قبل أن يقول في حنق :
- أنت على حق .. لا وقت للمهاترات .
واندفع يغامر القبر في خطوات واسعة سريعة ، وهو
يرفع عقيرته ، صانحاً :
- لو حاول أحدهم إنقاذ هذا الشيخ ، فلا تترددوا في
نبحه .

ابتسم (خوان) في سخرية ، وقال وهو يتطلع إلى
الشيخ :

- لو أن الأمر بيدي ، لنبحتك الآن وبلا تردد أيها
الوزير السابق ، ولكن ملكنا (فرناندو) يصر على رؤيتك
بنفسه ، عندما تسيطر جيوشنا على ما تبقى من أرضنا
الاندلسية .

قال الشيخ :

- وهل ملككم صبور إلى هذا الحد ؟

أطلق (خوان) ضحكة ساخرة ، وقال :

- بل أنت الجاهل أيها الوزير .

ثم مال نحوه ، حتى امتزجت أنفاسهما ، وهو يتطلع إلى

عينيه ، مستطرذاً في شماتة :

- من الواضح أنك لا تعلم أن جيوشنا ستجتاح ما تبقى

من (الأندلس) ، بعد أربع ليال فحسب .

ثم تراجع مقهقهها في جذل ظافر ، في حين عقد الشيخ

حاجبيه في شدة ، وقد بدأ قلبه يشعر بالخوف الحقيقي لأول

مرة ..

الخوف من الضياع ..

ضياع (الأندلس) ..

★ ★ ★

بذل (مهاب) قصارى جهده ، واستنفر كل إرادته ،

ليختل أم ساقه اليسرى ، وجواده ينهب به الطريق ، إلى

جوار جواد (فارس) ، إلا أن جسده لم يستطع الاحتمال

إلى ما لا نهاية ، فلم يلبث أن أطلق صرخة ألم ، وهو

يهتف بـ (فارس) :

- رويدك يا فتى .. ساقى لم تعد تحتل .

كان (فارس) يتمنى مواصلة الطريق حتى النهاية ،

إلا أنه لم يملك سوى التوقف ، إيماناً منه بأن القافلة

لا تسير إلا بقدر احتمال أضعفها ، فتوقف ، والتفت إلى

(مهاب) ، ليسأله عن حال ساقه ، ولكنه لم يكذ بتطلع

إليها ، حتى هتف في انزعاج :

- ربنا !

كانت الضمادات التي تلف ساق (مهاب) قد اتسخت ،

وتلوّثت ، وانتشرت فيها بقعة ضخمة من الدماء ، جعلت

(فارس) يستطرد :

- ولكنك تنزف يا صديقى .

هز (مهاب) كتفيه ، وقال في ألم :

- حقاً !؟

وثب (فارس) عن جواده ، وأسرع إليه يعاونه على

الهبوط ، ثم أرقده أرضاً ، و (مهاب) يقول في تهالك :

- اننا نضيع وقتاً طويلاً .. سنتوقف لحظات ، ثم نعاود

السير .

لم يعلق (فارس) على عبارته ، وإنما رفع الضمادات

بسرعة عن ساقه ، وسمعه يتأوه ، وهو ينزع عنه الجزء

الأخير منها ، ثم انعقد حاجباه في شدة ، وهو يتطلع إلى

الجرح .

كانت الدماء تواصل نزيفها ، وتفرق ساقه كلها ،

وبعضها يتجلط حول الجرح وأسفله ، فى حين راح عرق
غزير يتصبب على وجه (مهاب) ، وهو يقول :

- الشيخ .. إننا لن نتخلى عن الشيخ .. أليس كذلك ؟
تحسّس (فارس) جبهة (مهاب) ، ثم هتف فى هلع :

- يا للهول !.. إنه محموم .

وراح يتلفت حوله . هاتفا فى أسى :

- ماذا أفعل الآن ؟.. كيف يمكننى إنقاذه ؟
بدا (مهاب) متهاكّا على نحو عجيب ، وهو يقول :

- ارحل يا فتى .. اتركنى وارحل .. أنقذ شيخنا .
ثم تراخى جفناه ، وتضاعف العرق المتصبب على
جبينه ، وأدرك (فارس) الحقيقة المؤلمة ..

إن (مهاب) يلفظ أنفاسه ..

أنفاسه الأخيرة ..

★ ★ ★

اعتدلت الأميرة (جميلة) ، تتطلع فى اهتمام إلى
وصيفتها (نذيرة) ، التى دلفت إلى جناحها فى خفة ،
وأشارت إلى باقى الوصيفات بالانصراف ، حتى أصبحت
وحدها مع الأميرة ، فسألتها هذه الأخيرة فى لهفة :

- ماذا لديك يا (نذيرة) ؟

مالت (نذيرة) على أذن الأميرة ، وهمست :

- لقد خرجت إلى السوق .
اعتدلت (جميلة) ، وسألتها :

- وماذا فعلت هناك ؟

تنهّدت (نذيرة) ، وقالت :

- لا شيء .. لقد تجولت فى السوق ، وتحذّثت إلى
بعض البائعين ، ثم عادت إلى القصر ، وقبعت فى حجرتها
منذ ذلك الحين .

انعقد حاجبا الأميرة ، وبدت على وجهها علامات
التفكير لحظات ، قبل أن تهز رأسها ، قائلة فى توتر :

- لا يمكننى أن أثق بهذه المرأة .. ولست أدرى كيف
سمح لها والدى بالتجوال بمنتهى الحرية ، على هذا النحو .
قالت (نذيرة) :

- مولاي الأمير له نظرتة الحكيمة للأمور يا مولاتى .
ظلت الأميرة عاقدة حاجبها لحظات ، ثم غمغت :

- ليتنى أدرك ما يدور فى أعماقه .
وتنهّدت فى قوة ، ثم مالت تتطلع إلى ساحة القصر ،
من نافذة جناحها ، وهى تستطرد :

- إنه لم يعد منح ثقته للقشتاليين على هذا النحو .
قالت (نذيرة) :

- ولكنها هاربة من قومها كما يقولون ، ويبدو أنها
نقلت بعض أسرارهم إلى مولاي الأمير .

هتفت (جميلة) :

- هي خائنة لقومها إذن ، ومن الخطأ أن نثق بخائنة ،
حتى ولو كان ما فعلته لصالحنا ، فالتى تخون قومها ،
لا تتورع قط عن خيانة أى كائن كان .

وصمت لحظات ، قبل أن تستطرد فى حزم :

- واصلى مراقبتها يا (نذيرة) .. اسعى لمعرفة كل
خطوة تخطوها ، وكل قول تنفوه به ، فهذه الأفعى تخفى
حتما سرا خطيرا ، ومهمتنا هي معرفته ، وفضح أمرها
أمام الجميع .

ثم رفعت رأسها فى اعتداد ، مضيفة :

- وهذا ما سأحيا من أجله .

تطلعت إليها (نذيرة) ، وهى تنطق عبارتها الأخيرة ،
وخفق قلبها بين ضلوعها ..

لقد نطقها بحزم وكبرياء أميرة ..

أميرة عربية ..

★ ★ ★

خفق قلب (فارس) فى قوة ، وهو يهز (مهاب) فى
رفق ، هاتفا :

- (مهاب) .. استيقظ يا صديقى .. استعد وعيك ..
لقد بلغنا الهدف تقريبا .. إننا على مسيرة نصف الساعة
من (شنتفى) .. قاوم يا صديقى .

فتح (مهاب) عينيه فى صعوبة ، وحذق فى وجه
(فارس) لحظة ، ثم قال فى حدة :

- ألم تذهب بعد ؟.. قلت لك : اتركنى .

أجابه (فارس) فى حزم ، وهو يعاونه على النهوض :

- محال يا صديقى .. محال .. لو أنك فى موضعى

لما تركتني قط .. محال .

ساعده (فارس) على الوقوف على قدميه ، ولكنه

ترنح ، وهو يقول :

- ولكن الشيخ ..

ثم تهاوى ساقطا ، لولا أن تشبث به (فارس) ، وهو

يقول فى توتر :

- رباه .. إنه مريض للغاية .

وفى حزم ، حمله (فارس) ، وأرقده على ظهر

جواده ، ثم وثب إلى متن (رفيق) ، وأمسك لجام جواد

(مهاب) ، وهو يقول :

- هيا يا (رفيق) .. دعنا ننقذ معلى .

وانطلق ينهب الأرض بجواده ، ويهتف فى أعماقه :

- أنقذه يا إلهى !.. عاونه ..

كان يشعر بالقلق ، مع ارتجاج جسد (مهاب) فوق

جواده ، إلا أنه لم يتوقف عن العدو ، حتى لاحت له أبواب

(شنتفى) ، وعبرها فى سرعة ، وهو يسأل أحد رجال
الحراسة :

- صديقى محموم .. أين يمكننى إسعافه ؟
تطلع إليه الحارس فى شك ، وأدهشه ثوبه الأبيض ،
وحرملته الخضراء ، وخوذته الفضية ، ولكنه أجاب به
حذر :

- هناك .. فى نهاية السوق ، ستجد منزل الحكيم
(همام) .

هتف (فارس) ، وهو يعدو بالجوادين :

- أشكرك يا رجل .

لم يستغرق عثوره على الحكيم (همام) أكثر من ربع
الساعة ، ولقد استقبله ذلك الشيخ الوقور فى اهتمام ،
وتطلع إلى ثيابه الملفتة للنظر ، والتي جعلته يبدو أشبه
بأمراء (الأندلس) ، ثم سأله :

- ماذا لديك يا ولدى ؟

حمل (فارس) جسد (مهاب) ، وهو يقول :

- صديقى مصاب بجرح عميق ، أورثه حمى أفقدته
الوعى .

هتف به الحكيم :

- أحمله إلى الداخل .. هيا .



وراح الحكيم يفحصه في اهتمام بالغ ، ثم قال :
- لقد اتسخ الجرح ، ويبدو أن الشيء الذي سببه كان
مسموماً ، ولكننا سنعالج كل هذا بإذن الله .
ولم تمض لحظات ، حتى كان هناك خمسة من شباب
البلدة يلتفون حول (مهاب) ، فأحدهم يغسل جراحه بماء
دافئ ، والثاني يجففها ويضع عليها بعض حبوب البن
المسحوقة ، والثالث يعاون الحكيم على فحصها ، والرابع
يعد مزيجاً من الثوم والعسل ، والخامس يسحق بعض
الأعشاب الجافة ، ويمزجها ببعضها ، و (فارس) يراقب
كل هذا في قلق ، قبل أن يسأل :

- هل سيشفى ؟

أجابه الحكيم في هدوء :

- بإذن الله يا ولدي .. بإذن الله .

راقبهم (فارس) وهم يدهنون الجراح بمزيج الثوم
والعسل ، ويضيفون إليها بعض مسحوق الأعشاب ، ثم
يسقون (مهاب) مشروباً صنعوه من غلى جزء آخر من
المسحوق ، وبعدها ألبسوه ثياباً جافة ، وراحوا يضعون
كمادات مبللة على جبهته وذراعيه ، وتنهد الحكيم ، وهو
يربت على كتف (فارس) ، قائلاً :

- اطمئن يا (فارس) .. سيشفى بإذن الله ، ولكنه
يحتاج إلى نوم عميق حتى صباح الغد .

تطلع إليه (فارس) في دهشة ، وهو يقول :

- هل تعرفنى يا سيدى ؟

ابتسم الحكيم (همام) ، وقال :

- الأنبياء تتناقل في سرعة يا ولدى ، وليس من الممكن
أن يخطئ المرء ثيابك المميزة ، التى يتناقلون وصفها
كالأساطير ، ولا بطولاتك الفذة ، التى يرددنها الجميع ،
ليجدوا فيها لمحة نصر ، تنتزعهم من أنياب شعورهم
الدائم بالهزيمة ، بعد أن انتزع منا القشتاليون ثلاثة أرباع
(الأندلس) ، ويقفون متربصين لنيل ما تبقى منها .

واتسعت ابتسامته ، وهو يستطرد :

- ثم إننى كنت الطبيب الخاص لأمير (قرطبة) ، رحمه
الله ، وأنت نسخة طبق الأصل منه ، فى ملامحه وثيابه .

هتف (فارس) :

- إذن فأنت تعرف والدى .

كان يرغب فى لقاء عشرات الأسئلة على الحكيم ، لولا
أن انفتح الباب فى هذه اللحظة ، وظهر على عتبة شاب
يهتف :

- أنباء هامة فى قصر الخائن .. لقد ..

وبتر عبارته بغتة ، عندما وقع بصره على (فارس) ،
وارتبك فى شدة ، ولكن الحكيم قال فى هدوء :

- ادخل وأغلق الباب خلفك يا ولدى ، وأكمل ما لديك
في أمان .

أطاعه الشاب ، واقترب منهما ، قائلاً في انفعال :
- لقد أحضروا شيخاً وقوراً إلى قصر الخائن ، وسجنوه
في القبو ، وأقاموا حوله حراسة مكثفة .
هتف (فارس) :

- شيخنا .. هل تعرف أين هو بالضبط ؟
عقد الحكيم (همام) حاجبيه ، وهو يقول :
- شيخكم ؟! .. هل تقصد ذلك الوزير ، الذى ... ؟
لم يتم عبارته ، ولكنه التفت إلى الشاب ، وسأله :
- هل رأيته بنفسك ؟

أجابه الشاب :

- نعم .. لقد أحضره رجلان غريبان فى الصباح ،
ويقال إنهما قشتاليين .. وحمله مع (جهلان) الخائن إلى
القبو ، ثم غادره الثلاثة ، وتركوا عشرة رجال لحراسة
مدخل القبو الوحيد .

هتف (فارس) فى حزم :

- يا للأوغاد .. لابد من إنقاذه على الفور .

قال الحكيم فى توتر :

- لن يمكنك مواجهة عشرة من الفرسان وحدك يا بنى .

وانبرى الشاب ، قائلاً فى سرعة :

- وليت الأمر يقتصر على الفرسان العشرة .. ولكن
الخائن (جهلان) أوصل القبو عبر عدة قنوات ، ببركة
ضخمة من المياه ، فى ساحة قصره ، ولو حدث هجوم
لإنقاذ الشيخ ، يكفى أن يجذب أحد الفرسان العشرة ذراعاً
معدنية صغيرة ، فتغمر المياه القبو ، وتغرق الشيخ على
الفور .

انعقد حاجبا (فارس) فى شدة ، فى حين تابع الشاب
فى أسى :

- وهذا يعنى أن إنقاذ الشيخ مستحيل .. مستحيل
تماماً .

وكانت ضربة قاسية .



٧ - المستحيل ..

رفع (خوان) ، الفارس القشتالي كأسه عاليًا ، في وجه (جهلان) ، وهو يقول في حماس جهورى :
- نخب (قشتالة) .

ارتجف (جهلان) ، وتلقت حوله في ذعر ، وهو يغمغم :
- رويدك يا سيد (خوان) .. إنك تقف الآن في قلب (الأندلس) .

جرع (خوان) كأسه دفعة واحدة ، ثم ابتسم في سخرية ، وهو يقول :

- اطمئن يا رجل .. لن يستمر هذا طويلا .

قال (جهلان) بصوت متوتر :

- فلنخفض أصواتنا إذن ، حتى ذلك الحين .

تبادل (خوان) نظرة ساخرة مع زميله ، ثم قال :

- هل تعتقد أنهم سيحاولون إنقاذ ذلك الوزير ؟

أجابه (جهلان) بسرعة :

- بالتأكيد .

ثم برقت عيناه ، وهو يستطرد :

- لقد أبلغني جواسيسى أن الفارس الأبيض قد وصل إلى

(شنتفى) بالفعل ، وكان يحمل زميله المصاب ، وهما

الآن في دار الحكيم (همام) .

قال (خوان) في صرامة :

- وماذا تنتظر إذن ؟ .. اقتحم دار هذا الحكيم ، واقتلها

على الفور .

قال (جهلان) :

- ليس هذا بالأمر اليسير يا سيد (خوان) .. صحيح

أننى الحاكم هنا ، ولكن الحكيم (همام) له شعبية جارفة ،

وعدد لا بأس به من الأتباع ، واقتحام داره بالقوة سيثير

ثائرة القوم ، ويدفعهم إلى ارتكاب حماقات ، نحن في غنى

عنها هذه الأيام .

قال (خوان) في حدة :

- شدد الحراسة على مداخل وأسوار القصر إذن .

ابتسم (جهلان) في مكر ، وهو يقول :

- دع هذا الأمر لى .

ثم استطرد في سرعة ، وكأنه يرغب في تغيير دفة

الحديث :

- ولقد وعدتمونى بنوال عرش (الأندلس الصغرى) .

بعد دخول جيوشكم إليها ، وأنتم قوم شرفاء ، توفون

بعهودكم دائما .. أليس كذلك يا سيد (خوان) ؟

وضع القشتالي الثانى (كارلوس) يده على فمه ،

ليخفى ضحكة كادت تنفجر من حلقه ، فى حين ارتسمت

على شفتي (خوان) ابتسامة واسعة ، تحمل شيئاً يسيراً
من الخبث والسخرية . وهو يقول :
- بالتأكيد يا حاكم (شنتفى) .. ستنال منا حتماً
ما تستحقه .

وضاقت عيناه ، وهو يستطرد ساخراً :
- ما تستحقه بالضبط .

ثم رفع كأسه الجديد ، وهتف :
- والان .. نخب (قشتالة) .
وفي هذه المرة ، ردد (جهلان) معه القسم .
ودون حذر ..

★ ★ ★

مالَت الشمس إلى المغيب ، وراحت تغوص تدريجياً في
بطء ، خلف أبراج قصر حاكم (شنتفى) ، و (فارس)
يراقبها في شروء ، من نافذة دار الحكيم (همام) ، الذي
جلس يراقبه بدوره في صمت ، حتى مال عليه أحد
مساعديه ، وهمس :
- إنه لم ينبس بحرف واحد ، ولم يغادر مكانه هذا ، منذ
ساعة كاملة .

ابتسم الحكيم ، وهو يتمتم :
- كم يذكرني بوالده (رحمه الله) ، في هذه الوقفة ،
التي كان يرتب بها أفكاره ، ويدرس قراراته القادمة .

ثم نهض من مقعده ، مستطرداً في خفوت :
- كانت تنتهي دائماً بخطة جديدة .
واقترب في حذر من النافذة ، وسأل (فارس) في
هدوء :

- ألن تتناول شيئاً من الطعام يا ولدي ؟
التفت إليه (فارس) ، وحنق في وجهه لحظة ، قبل
أن يقول :
- آه .. أشكرك يا سيدي .. لست أشعر بعد بالجوع .
ثم اعتدل ، وسأله في اهتمام :

- قل لي أيها الحكيم : هل يمكنني الحصول على
معاونة ، لدخول قصر الحاكم ؟
سأله الحكيم :

- ومتى تنوي أن تفعل ؟
أجابه على الفور :
- الليلة ، لو أمكننا هذا .

مطَّ الحكيم شفتيه ، وانعقد حاجباه طويلاً ، وهو يفكر
في عمق ، ثم قال :

- يمكننا تدبير هذا إلى حد ما ، ولكنه لن يكون بالأمر
السهل ، فالقصة التي رويتها لي تعني أن الحاكم ينتظر
ويتوقع حضور بعضكم ، في محاولة لتخليص الوزير

واستعادته ، ولا ريب أنه قد اتخذ أهبطه ، وأعدّ العدة لملاقاتكم ، وستجد الحراسة مشددة .

قال مساعد الحكيم فى قلق :

- وكما أخبرتك .. الوصول إلى الوزير مستحيل !

أجابه (فارس) فى حزم ، وهو يشير إلى رأسه :

- لا يوجد مستحيل ، ما دام هذا فى موضعه .. إنهم

يمكرون ويخططون ، ونحن نمكر ونخطط ، والله

(سبحانه وتعالى) يفعل ما يريد فى النهاية .

ثم تحرّك فى الحجرة ، مستطرذا :

- كل ما فى الأمر هو أننا نواجه قوة غاشمة ، تستعد

تمام الاستعداد لمواجهة محاولة هجوم واضحة ، ولكننا

سنضربهم من حيث لا يتوقعون ، فنربكهم ، ونزلزل

نفوسهم ، ونهزمهم بإذن الله (عز وجل) .

قال الشاب فى اهتمام :

- أديك خطة محدودة ؟

ابتسم (فارس) ، وهو يقول :

- بالتأكيد .

بدت ابتسامته غامضة ذكية ، ثم لم يلبث أن سأل فى

اهتمام بالغ :

- والآن هل لدينا رجل أو رجلين داخل القصر ، يمكن

إبلاغهم رسالة عاجلة ؟

أجابه الحكيم :

- نعم .. وسنرسلها إليهم فى التو واللحظة ، قبل

إغلاق أبواب القصر .

بدا الارتياح على وجه (فارس) ، وهو يقول :

- عظيم .. بقى إذن أمر واحد .

سأله الشاب :

- وما هو ؟

برقت عينا (فارس) ، وهو يقول :

- أريد منكم أن ترددوا أننى أريد (فهذا) فى القصر .

تبادل الحكيم والشاب نظرة دهشة ، قبل أن يقول الحكيم :

- ما الذى تعنيه بهذا ؟

ابتسم (فارس) ، وهو يقول :

- إنها مجرد رسالة .

وعاد يتطلع إلى الشفق ، الذى تلون بألوان الغروب ،

وهو يستطرد :

- رسالة تعنى الكثير .. والكثير جدًا .

واتسعت ابتسامته أكثر ..

★ ★ ★

سرى الأمر فى سرعة ، فى سوق المدينة ، بعد غروب

الشمس مباشرة ، وراح الناس يتهايمسون به ، وينقلونه

من واحد إلى آخر ، وإن أثارت العبارة حيرتهم ، وراحوا يتساءلون عما يعنيه وجود فهد في القصر ، ولم يتوصل أي رجل منهم إلى تفسير منطقي لهذا ..
فيما عدا رجل واحد ..

علاق زنجي صموت ، وصل إلى البلدة في الصباح ، على متن جواد حالك السواد ، وذاب وسط زحام السوق ، وهو يحوم حول قصر (جهلان) ، ويدرس مداخله ومخارجه ، وارتفاعات أسواره وأبراجه ..
وفي المساء بلغته العبارة ..

وفهمها على الفور ..

وفي حزم ، جذب عنان جواده ، واتجه إلى قصر الحاكم ، وقد عقد العزم على الدخول إليه ، مهما كان الثمن ..

ولكن أحد رجال الحاكم انتبه إلى وجوده ، فمال على أدن زميله ، وهمس في توتر :
- انظر .. أقسم بأبائي وأجدادي أنه ذلك الزنجي ، الذي حذرونا منه .

هتف زميله في انفعال :

- نعم .. إنه هو بلا شك .. أبلغ الرجال ، وتعال نهاجمه على الفور .

ضغط الأول يده ، وهو يقول :

- كلا .. انتظر .. لو أن ما أبلغونا به صحيح ، فهذا الزنجي ليس هينا .. إنه يحتاج إلى خدعة متقنة ، لإيقاعه في فخ محبوك .

اعتدل زميله ، وهو يقول :

- صدقت ..

لم يسمع (فهد) حديثهما ، وهو يدور حول القصر ، ويبحث عن وسيلة للدخول إليه ، ثم لم يلبث أن عثر على ممر ضيق ، يفصل أحد أسوار القصر عن بيوت الحراس ، فدلف إليه بجواده ، وهو يقيس ارتفاع الأسوار بعينه ، و ...

وفجأة ، أطبق الفخ فكيه ..

أكثر من عشرين رجلاً ، أغلقوا الممر من الجانبين ، وكل منهم يحمل سيفه ومجته ، وعلى رأسهم الرجل الذي كشف وجوده في البداية ، والذي فهقه ضاحكاً ، وهو يقول :

- انتهى الأمر أيها الزنجي .. لقد سقطت في الفخ .

ولكن (فهد) لم يضع لحظة واحدة ..

لقد أحاط به الرجال من الجانبين ، في محاولة لمباغتته ، والإفادة من عامل المفاجأة وتأثيره ، إلا أن (فهد) أطلق



وشهق الفرسان في دهشة أقرب إلى الذهول ، عندما عبرهم الجواد
الأدهم بوثة نادرة واحدة ..

فجأة صرخته المخيفة الرهيبة ، التي تزلزل قلوب أعتى
الرجال ، ثم انقضّ على الجميع كالإعصار ..
إعصار عاتب رهيب ، تمثل في سيف صارم بثّار ، راح
يهوى على الصدور والأعناق بلا رحمة أو تردد ..
وأدرك رجال (جهلان) أنهم أمام وحش كاسر ،
وعملاق لا يشق له غبار ..

لقد قاتلوه بسيوفهم ورماحهم ، وجرحوا صدره
وساقه ، وذراعيه ، وسالت الدماء من جسده كالسيل ،
ولكن سيفه لم يتوقف ، وعزيمته لم تهن ، حتى أنه أجبرهم
جميعاً على التراجع أمامه ، فهتف قائدهم .
- السهام .. ارموه بسهامكم .

جذب كل منهم سهمًا من جعبته ، ولكن جواد (فهد)
انقضّ عليهم في بسالة ، قبل أن يجذب (فهد) عنانه ،
فيطلق صهيلًا عاليًا ، ثم يثب فوق رعوس الجميع ..
وشهق الفرسان في دهشة أقرب إلى الذهول ، عندما
عبرهم الجواد الأدهم بوثة نادرة واحدة ، ثم انطلق براكبه
يشق ظلام الليل ، وينوب فيه تمامًا ..
.. وهتف أحد الرجال في سخط :

- اللعنة ! لقد هرب .

أجابه قائده فى غضب صارم :
- ولكنه لن يبتعد كثيرا .. لقد أصبناه بجراح تكفى لقتل
ثور هانج .. إنها مسألة وقت فحسب ..
وكان هذا هو المخيف فى الأمر ..
إنها مسألة وقت ..

★ ★ ★

لم يفض للحاكم (جهلان) جفن ، طوال تلك الليلة ..
لقد قضى نصف الليل متطلعا عبر نافذته ، إلى مدخل
القبو ، الذى يسجن فيه الشيخ ، حتى أن زوجته قالت فى
ضجر :

- هل ستظل هكذا طويلا ؟

غمغم فى توتر :

- أخشى أن يحاولوا استعادة الوزير .

قالت فى حنق :

- وما الذى سيفعله وقوفك هكذا ؟!.. ألا تثق بهؤلاء

العمالقة العشرة ، الذين تركتهم لحراسة القبو ؟

مط شفتيه ، وهو يقول :

- إنهم أفضل رجالى .

هتفت :

- ماذا إذن ؟

تتهدد فى عمق ، ثم هز رأسه ، وغمغم :
- لست أدري .. إنه القلق فحسب .
عادت إلى فراشها ، وهى تقول فى ضجر :
- لو أننى فى مكانك لقتلته واسترحت .
قال فى مقت :
- كم تمنيت هذا ، ولكن السيد (خوان) يصّر على
بقائه على قيد الحياة ، ليقدمه بنفسه إلى الملك
(فرناندو) .
عقدت حاجبيها ، وهى تقول :
- هل تثق بـ (فرناندو) هذا ؟
صمت لحظات ، ثم قال :
- ليس أمامى سوى أن أثق به .. إنه سيحتل
(غرناطة) ، إن أجلا أو عاجلا ، ولست أحب أن ألعب دور
الأسير حينذاك .
زفرت فى توتر ، ثم قالت :
- حسن .. ستكشف الأيام ما إذا كنت قد أصبت أم
أخطأت .. والآن أئن تنام قليلا ؟ .. ستشرق الشمس بعد
ساعة على الأكثر .
ألقي نظرة أخرى متوترة على الساحة والفرسان
العشرة ، الذين يحرسون مدخل القبو ، ثم غمغم :

- نعم .. لابد للمرء من بعض النوم .
وعاد إلى الفراش ، ولكن النوم أبى أن يزور جفنيه ..
ولم يكن هذا حاله وحده ..
لقد قضى رجال الحراسة الليلة كلها فى انتباه زائد ،
وبأعصاب مشدودة كوتر القوس ، تكاد تتمزق مع أدنى
ضغط ..
ثم أذن الفجر ، وبدأت الشمس تستعد للشروق ،
وانطلقت العصافير تنشد أنشودة الصباح الأبدية ..
وفى تلك اللحظات بالذات يأتى النوم بكل قوته ، ليداعب
الجفون المثقلة ، بعد طول سهر وتوتر ..
وتراخت الأجفان بعض الشيء ، وخيم هدوء تام على
القصر ..

فيما عدا البرج الغربى ..
ففى أعلى البرج تسلل رجلان من رجال الحكيم
(همام) ، وهما يحملان لفة ضخمة من الحبال ، فربطا
طرفها فى حاجز نافذة البرج فى إحكام ، ثم ألقيا طرفها
الآخر إلى أسفل ..

وهناك كان يقف (فارس) ، الذى تلقى طرف الحبل ،
ثم تشبث به ، وراح يتسلق البرج فى سرعة وخفة ، حتى
بلغ نافذته ، فوثب عبرها إلى داخله ، وسأل الرجلين فى
اهتمام :

- هل أعدتما كل شيء ؟
أجابه أحدهما :

- كل شيء على ما يرام .
هبط الثلاثة فى سرعة إلى باب البرج ، الذى يطل على
الساحة ، فتطلع (فارس) من فرجته إلى الفرسان
العشرة ، وغمغم :

- ومتى يبدأ العمل ؟

أجابه أحد الرجلين :

- مع اكتمال شروق الشمس .
لاذ (فارس) بالصمت عدة دقائق ، وهو يراقب
الشفق ، حتى هتف أحد الرجلين فى انفعال :

- الآن .

لم يكذ يتم عبارته ، حتى اندلعت النيران فى البرج
المقابل ، حيث حجرة الحاكم ، وظهر رجل يصرخ فى
ارتياح :

- النجدة .. إلى يا رجال .. إنهم يهاجمون الحاكم .
لم يكذ الفرسان العشرة يسمعون هذا الهتاف
الاستجدى ، ويرون النيران المندلعة من النوافذ ، حتى
هب ستة منهم لنجدة الحاكم ، فاندفعوا إلى البرج ، فى
حين بقى الأربعة الآخرون لحراسة القيو ، فهتف (فارس) :

- انطلقا .

ودفع باب البرج ، وانقض في بسالة على الفرسان الأربعة ..

وكانت انقضاضته إيذاناً ببداية عمل فريق الرجال ، الذي يشكل جبهة الحكيم (همام) ، المعارضة للخائن (جهلان) .. ولم يتصور (فارس) أنهم بهذه الكثرة .. لقد ظهر رجلان آخران ، أسرعاً يغلقان باب البرج الشرقي ، خلف الفرسان الستة ، لسجنهم داخله ، في حين برز أكثر من عشرة رجال ، هاجموا حراس الأسوار ، ورجلان آخران ، انضمّا إلى (فارس) ، في هجومه على الفرسان الأربعة الباقين ..

وكانت خطة (فارس) تعتمد على مباغتته العدو ، وعدم منح الفرسان فرصة كافية ، لجذب الذراع المعدنية ، وإغراق الشيخ داخل القبو ..

وكان القتال شرساً وعنيفاً ، فالفرسان الأربعة كانوا مقاتلين صناديد ، وكانت ضرباتهم قوية عنيفة ، ولكن (فارس) تصدى لها في قوة وحزم ، وأطاح بسيف أحدهم ، ثم طعنه طعنة نجلاء ، واستدار إلى الثاني ، في نفس الوقت الذي سقط فيه أحد الرجلين معاونين له ، بطعنة قاتلة من أحد الفرسان ، وعاد (فارس) يبارز رجلين في آن واحد ..

وبارزه الرجلان في وحشية واستماتة ، ولكنه راح يضرب السيفين في تتابع متقن مدهش ، حتى مرق فخذ أحد الرجلين بسيفه ، ثم أدار السيف في الهواء بمهارة مدهشة ، وغرسه في عنق الثاني ..

وفي غضب ، تراجع الفارس الأخير ، هاتفاً :
- لن تربح أيها الفارس الأبيض .. سيفرق الشيخ كالجرذ الأجرب .
واندفع نحو الذراع المعدنية ، فلقق به (فارس) ، هاتفاً :

- إياك أن ..
ولكن الرجل قفز نحو الذراع المعدنية ، وجذبها في قوة ، وصوت (جهلان) يرتفع عبر النافذة :
- إنها خدعة .. خدعة .

وتفجرت المياه عبر فتحات القبو ، وصرخ (فارس) :
- أيها الوغد الحقير .
وظعن الرجل في قلبه تماماً ، ثم سحب سيفه ، وانطلق يعدو إلى داخل القبو ..

كانت المياه تتدفق في غزارة ، وتغمر القبو في سرعة ، والشيخ مقيد بأغلال معدنية إلى جوار القبو ، ولم يكدر يرى (فارس) ، حتى هتف به :

- ارجع يا ولدى .. ارجع يا (فارس) .. سنغرق مغاً
يا ولدى .

هتف (فارس) :

- محال يا عماه .. محال أن أتركك هنا .

انقضّ على الأغلال المعدنية ، يحاول تحطيمها ،
والشيخ يهتف :

- لا فائدة يا (فارس) .. تراجع يا ولدى .. تراجع .
كانت الأغلال متينة بالفعل ، فتخلّى عنها (فارس) ،
وراح يضرب الأجزاء التي تثبتها بالجدار ، حتى حطّم
أحدها ، ثم انتقل إلى الآخر ..
وغمرت المياه القبو ..

غمرته تمامًا ، حتى أن جسد (فارس) والشيخ
أصبحت تحت مستوى الماء ، و (فارس) يواصل محاولاته
لانتزاع الأغلال المعدنية من الجدار ..
ثم نجح أخيرًا ..

وبأقصى سرعة ممكنة ، حمل الشيخ ، وراح يسبح به
حتى بلغ درجات السلم ، التي تقود إلى ساحة القصر ،
فواصل سباحته إلى أعلى ، وبرز رأسه ورأس الشيخ فوق

سطح الماء والتقط كل منهما نفسًا عميقًا ، ثم هتف
(فارس) :

- لقد نجونا يا سيّدى .. نجونا .

أتاه صوت صارم بارد ، يقول :

- ليس بعد يا فتى .

وأمام عينيه مباشرة ، رأى (فارس) كل رجال الحكيم
(همام) ، وقد سقطوا في قبضة جيش (جهلان)
الصغير ، ما بين أسير وقتيل ، ووقف (خوان)
و (كارلوس) أمام مدخل القبو ، وخلفهما الفرسان
الستة ، والحاكم (جهلان) ..

وكان هذا يعنى أن (فارس) قد سقط ..
بل سقطت (الأندلس) كلها .



٨ - حكم الإعدام ..

ران على ساحة القصر صمت عميق رهيب ، والكل يتطلعون إلى (فارس) والشيخ ، اللذين وقفا ثابتين ، على الرغم من المياه التي أغرقتهما عن آخرهما ، وانعقد حاجبا (جهلان) في غضب ، وهو يدير عينيه في المكان ، في حين التقط (خوان) نفسا عميقا ، ملأ به صدره عن آخره ، وارتسمت على شفثيه ابتسامة شامتة ساخرة ، قبل أن يقطع حبل الصمت ، وهو يشد قامته ، قائلاً :

- أهنتك يا فتى .. لقد فاجأتنا بحق .

وازدادت ابتسامته سخرية ، وهو يتابع :

- صحيح أننا كنا نتوقع قدومك ، ونستعد لملاقاتك ،

ولكننا لم نكن نتوقع أن تأتي إلينا برجال الحكيم (همام) ،

فنقطف الجميع بضربة واحدة ، ونحصدهم بمنجل واحد .

قال (فارس) في هدوء :

- هؤلاء ليسوا الجميع .

قال (خوان) في حزم :

- إنهم بداية الخيط ، الذي سيحترق عن آخره ، في أيام

معدودات ، بسبب حماقاتك وغرورك .

أجاب (فارس) في صرامة :

- بل بسبب خائن مثل (جهلان) ، الذي أدار ظهره

لعروبتة ، وسمح لوغدين قشتاليين بإدارة شنونه ، طمعا

في ربح زائل وغير مضمون .

ابتسم (خوان) في سخرية ، وقال :

- أظنه غير مضمون حقاً ؟!

أجاب (فارس) :

- بل أوقن من أنه كذلك .

ورسم على شفثيه ابتسامة ساخرة مماثلة ، وهو

يستطرد :

- فأمرنا (ابن الأحمر) يعرف كل التفاصيل .. يعرف

أنكم تعذون العدة لهجوم واسع على حدودنا ، ولمحاولة

جديدة لانتزاع مملكة (غرناطة) ، آخر ما تبقى لنا من

(الأندلس) .. بل ويعلم أنكم ستهاجمون بخمس فرق دفعة

واحدة ، من هذه النقطة .. من (شنتفى) ، وبمعاونة

الخائن (جهلان) .

أطلق (خوان) ضحكة عالية مجلجلة ، وهو يقول :

- عظيم .. عظيم ما تعرفون .. إننا ننوي الهجوم

بخمس فرق فحسب .

ثم مال نحو (فارس) ، مستطرداً :

- ولكن المفاجأة هي أننا لن نهاجم من هنا يا فتى ..

لقد خدعناكم جميعاً ، لنضرب ضربتنا من مكان آخر

لا تتوقعونه ..

وابتسم في تشف ، مردفاً :

- من (بسطة) .
وكانت مفاجأة حقيقية ..
مفاجأة مذهلة ..

★ ★ ★

قهقه الملك (فرناردو) ضاحكا في جذل ، ورفع كأسه
عاليا ، في وجه الملكة (إيزابيلا) ، وهو يهتف :
- نخب خطتي العبقريّة ، التي ستستعيد (الأندلس)
كلها ، لتصبح مملكة (قشتالة) العظمى .
قالت (إيزابيلا) في حزم :
- (قشتالة) و (ليون) .
قهقه الملك (فرناندو) ضاحكا في جذل ، ورفع كأسه
- فليكن يا عزيزتي (إيزابيلا) .. (قشتالة)
و (ليون) .
ابتسمت في ارتياح ، وتراجعت في عرشها ، وهي
تقول :
- ولكنني اعترف لك بالعبقرية ، فخطتك مدهشة ،
وقادرة على خداع الشيطان نفسه .
ابتسم (فرناندو) في زهو ، وهو يقول :
- أشكرك يا عزيزتي (إيزابيلا) .. إنها خطة عبقرية
بحق ؛ ففرار (غالا) سيبدو منطقيا للغاية ، وعندما أُرسل

خلفها بعض الرجال ، ممن نعتبرهم في بند خسائر
المعركة ، فيقاتلون لاستعانتها ، وهي تسعى إلى معسكر
الوزير ، سيبدو الأمر منطقيا ومقنعا للغاية .. وهكذا
يصدقون كل ما ترويه لهم .. ومن الطبيعي أن يصدقوا
قصتها عن الهجوم ، الذي سيبدأ من (شنتفي) ، نظرا لما
سيتضمنه الأمر من تفاصيل منطقية ، تستند إلى دلائل
معقولة واضحة ، وعندما يجمعون جيشهم لمواجهة جيشنا
في (شنتفي) ، نباغتهم نحن بهجوم على (بسطة) ،
فننتزعها منهم ، وتكون نقطة وثب مثالية إلى الهدف .
وبرقت عيناه ، وهو يستطرد :
- إلى (غرناطة) .
هزت (إيزابيلا) رأسها ، وهي تقول :
- أنت داهية بحق .
ابتسم في فخر ، ولكنها تابعت في اهتمام :
- وهل تعرف (غالا) دورها جيدا ؟
جرع ما تبقي من كأسه ، ثم مسح شفّيته بكفه ، وهو
يقول :
- لقد درست الأمر وحفظته جيدا ، وأنا واثق من قدرتها
على أداء دورها .
قالت في حيرة :

- وكيف أقنعتها بفعل هذا ؟

هز كتفيه ، قائلاً :

- لم يكن أمامها خيار آخر .. لقد أخبرتها أنني سأعدها جزاء خيانتها ، ما لم تنفذ ما أمرها به ، وبمنتهى الدقة ، وأنتى سأمنحها مكافأة مجزية ، في حال نجاحها .

سألته بنظرة ذات مغزى :

- وهل ستفعل ؟

صمت لحظات ، وهو يتطلع إلى كأسه الفارغة ، ثم هز

رأسه ، قائلاً :

- من الخطأ العفو عن خائن ، فهذا يشجعه على الخيانة

مرة ثانية .

بدا الارتياح على وجهها ، وهي تقول :

- هل تعنى أن ...

قاطعها في حزم :

- نعم يا عزيزتى (إيزابيلا) .. الجزاء الوحيد الذى

ينتظر (غالا) هو الموت .. لقد أصدرت حكماً بإعدامها ،

وهذا يعنى أن (غالا) قد انتهت يا عزيزتى .. انتهت

تماماً ..

★ ★ ★

لم تكد الشمس تشرق على حصن الحمراء فى

(غرناطة) ، حتى بدأ الباعة يتخذون أماكنهم فى السوق

المحيط به ، ومن بينهم تسأل بائع طيور لمقابلة (غالا) ،

التي سألتها بلغتها القشتالية :

- هل أحضرتها ؟

أوما برأسه إيجاباً ، وقال :

- بالطبع .. هل أعددت الرسالة ؟

ناولته رقعة صغيرة مطوية ، وهي تهمس :

- ها هي ذى .

ابتسم قائلاً :

- عظيم .. هل تحوى كل المعلومات ؟

غمغمت :

- كلها .

ربط الرقعة فى قدم حمامة من حمام النوع الزاجل فى

عناية ، وقال :

- عودى إذن إلى القصر ، واجمعى المزيد من

المعلومات ، وسأرسل أنا هذه الرسالة إلى (قرطبة) على

الفور .

انفصلا فى سرعة ، وعادت هى إلى القصر ، فى حين

شق هو طريقه وسط السوق ، حتى بلغ ربوة عالية على

مشارفه ، فابتسم وهو يقول للحمامة :



ولكن فجأة ، شعر بيد ثقيلة توضع على كتفه ، مع صوت صارم يقول :
— سلها أولاً ..

٨م — فارس الأندلس — الهاربة (٩)

— هيا يا صغيرتي .. انطلقى إلى (قرطبة) ، وأوصلنى
كل أسرار العرب إلى مليكنا (فرناندو) .
ولكن فجأة ، شعر بيد ثقيلة توضع على كتفه ، مع
صوت صارم يقول :
— سلها أولاً ، فربما تفضل البقاء هنا .
التفت فى هلع إلى صاحب الصوت ، ورأى أمامه ثلاثة
من رجال الأمير ، يرمقونه بنظرات صارمة ، وأحدهم يكمل :
— إذ أن أسرارنا لن تذهب إليكم بهذه السهولة .
جفل الجاسوس ، وأطلق الحمامة ، وهو يهتف :
— بل ستذهب إلينا الآن .
انطلقت الحمامة ترفرف بجناحيها مبتعدة ، فى طريقها
إلى (قرطبة) ، وهى تحمل الأسرار العربية فى قدمها ،
ولكن أحد الرجال الثلاثة سحب قوسه ، ودسه فى وتر
قوسه ، وأطلقه ..
وسقطت الحمامة ..
وصرخ الجاسوس :
— لا .. لا ..
ثم استل خنجره ، وهم بالهجوم على الرجال الثلاثة ،
الذين استقبلوا انقضاضته بحزم واضح ، وقيده فى
إحكام ، ثم قال أحدهم :

- اطمئن أيها الحقيير .. لن نقتلك .. إننا نراقب شريكك منذ ساعات ، ونحتاج إلى معرفة كل ما لديك .. هيّا بنا .
في نفس اللحظة ، كانت (غالا) تصعد إلى الجناح الذي خصّصه لها الأمير ، في أحد أبراج الحصن ، ولكنها فوجئت بالوصيفة (نذيرة) أمامها ، ترمقها بنظرة غاضبة ، وهي تقول :

- ما الذي أعطيته لبائع الطيور ؟
انعقد حاجبا (غالا) في شدة ، وهي تقول :
- لا شأن لك بهذا .

وواصلت طريقها في صرامة ، ولكن (نذيرة) استوقفتها ، قائلة :
- إنها أسرارنا .

التفتت إليها (غالا) بنظرة حادة ، فاستطردت (نذيرة) في حدة :

- نعم .. هي أسرارنا .. لقد سمح لك مولاي بالتجوال هنا ، فدرست كل ما تربيته ، وسجلته على رقعة من الجلد ، ثم سلمته لذلك الجاسوس .. أنا أعرف هذا .

زمجرت (غالا) ، قائلة :

- اصمتي أيتها المأفونة .

هتفت (نذيرة) :

- بل أنت جاسوسة .. جاسوسة قذرة .
وفجأة ، استلّت (غالا) من طيات ثيابها خنجرًا ، وهي تقول :

- أيتها العربية الحقييرة .

وانقضت عليها في وحشية ، فأمسكت (نذيرة) معصمها ، لتمنعها من طعنها ، وهي تهتف :
- إذن فقد كنت على حق .. أنت جاسوسة .

هتفت (غالا) ، وقد استحالت إلى وحش كاسر .
- بالطبع أيتها الغبية .. هل تصوّرت أنني سأخون (قشتالة) من أجلكم ؟! .. من أجل بعض العرب .. لا أيتها المرأة .. لو أنك تصوّرت هذا فأنت واهمة .. لقد قتل فارسكم الأبيض الرجل الوحيد الذي أحببته ، في عمري كله .. قتل (رودريك) (*) .. ويومها أقسمت أن أثار لحبيبي ، وأن أقتل (فارس) .. ولكن الفكرة لم تلبث أن تطوّرت في أعماقي ، وقرّرت الانتقام من العرب كلهم .. ستدفعون جميعًا ثمن حياة (رودريك) .. ستدفعون جميعًا الثمن ..

ولكن (نذيرة) قاومتها بكل قوتها : وهي تصرخ :

- النجدة .. النجدة يا رجال .

(*) راجع قصة (جاسوس قرطبة) .. المغامرة رقم (١) .

إلا أن (غالا) انتزعت معصمها من يد (نذيرة) ،
وغرست الخنجر في قلبها ، وهي تهتف في وحشية
جنونية :

- خذوها أيتها العربية .. خذوها من قشتالية .
جحظت عينا (نذيرة) في شدة ، وشهقت شهقة
أخيرة ، ثم هوى رأسها على صدرها ، وسقطت جثة
هامدة ..

وفي نشوة ، نهضت (غالا) ، وبرقت عيناها في
وحشية ، وهي تقول :

- فلتكوني أول الغيث أيتها العربية ، وبعدك ..
وقبل أن تتم عبارتها ، ظهرت الأميرة (جميلة) بغثة
أمامها ، فأسرعت تخفي خنجرها ، وهي تهتف في ارتياح
زائف :

- قتلوها .. قتلوا (نذيرة) يا مولاتي .. جاسوسة
قتلتها وهربت ، قبل أن أتبين ملامحها .
انعقد حاجبا الأميرة (جميلة) في غضب هادر ، وهي
تقول :

- هل تعلمين ما الذي تعنيه (نذيرة) ، بالنسبة لي ؟
تطلعت إليها (غالا) لحظة في حيرة ، ثم غمغمت :
- مولاتي ..

ولكن (جميلة) تابعت في حزم ، وقد تجمعت دمة
غاضبة كبيرة في عينيها :

- لقد توفيت أمي مع مولدي ، وربتني (نذيرة) ،
وكانت بالنسبة لي أما رحيمة حنون ، غمرتني بعطفها
ورعايتها منذ مولدي ، وعبر طفولتي وصباي وشبابي .
ثم التقى حاجباها في غضب ، وهي تستطرد :
- وأنت قتلتها الآن .

قالت (غالا) في توتر :
- قلت لك : إن جاسوسة ..
قاطعتها الأميرة في غضب :

- أنت قتلتها يا (غالا) .. قتلتها أيتها القشتالية
الحقيرة .. هل تعلمين ما الذي يعنيه هذا ؟
تطلعت إليها (غالا) لحظة ، ثم قالت في صرامة :
- يعني أن التوقف صار مستحيلا الآن .
واستلّت خنجرها مرة أخرى ، وهي تنقض به على
الأميرة ، صارخة :

- وأن الأمر سيتكرر معك .
صرخت الأميرة في صرامة :
- لا يا (غالا) .

وفجأة ، أبرزت يدها من خلفها ، وهي تمسك سيفاً
قوياً ، هوت به على عنق (غالا) الجميل ، وهي تستطرد :

- بل يعنى أننا سنطبق قاعدة العدل الأولى .
واعتدلت فى حزم ، وهى تتطلع إلى جثة (غالا) ، ثم
رفعت رأسها فى اعتداد ، مضيفة :
- العين بالعين .. والسن بالسن .. والبادى أظلم .
وانهمرت دموعها على وجنتيها ..
★ ★ ★

اتسعت عينا (فارس) والشيخ فى دهشة بالغة ،
وتبادلا نظرة أقرب إلى الذهول ، وهتف (فارس) :
- فى (بسطة) ؟!

أما الشيخ ، فقال فى حذر :
- أهى خدعة أخرى ؟

أطلق (خوان) ضحكة عالية قوية ، وقد راق له ذلك
الذهول ، الذى ارتسم فى ملامحهما ، وقال متباهيا متشفيئا :
- لم تكن هناك سوى خدعة واحدة ، سقط الجميع فيها ،
كما يسقط الذباب فى وعاء من العسل .. خدعة وضعها
مليكننا (فرناندو) بخبرته وحنكته ، مستغلا شهامتكم
العربية ، وسرعة تصديقكم وتأثركم بدموع النساء ،
وأرسل إليكم (غالا) ، مع قصة متقنة ، تدفعكم لجلب
جيوشكم إلى هنا ، فنضربكم نحن فى بقعة أخرى .
عقد (فارس) حاجبيه ، وهو يقول :

- يا للحقيرة !

غمغم الشيخ :
- كنت أتوقع هذا .. لا يجب أن يثق المرء فى أعدائه ،
مهما أبدوا من التعاطف والصدق معه .
قال (فارس) فى حزم :

- صدقت يا عماه .. لن أنسى هذا ما حييت .

قهقه (خوان) ضاحكا ، وقال :

- لن تنسى هذا ؟! .. يا لها من عبارة متفائلة طريفة ..
هل تتصور أنك ستحيا ، لتضع درسنا جديدا فى ذاكرتك ؟
تطلع (فارس) إلى عينيهِ مباشرة ، وهو يقول :
- سأحيا بإذن الله ، حتى أبصق بنفسى فى وجه مليكم
المحبيب .

انعقد حاجبا (خوان) ، وهو يقول :

- أخطأت يا فتى .

ثم مال نحوه ، مستطرذا :

- صحيح أن الملك (فرناندو) طلب الإبقاء على حياة
الوزير ، حتى يلتقى به بنفسه ، إلا أن هذا الأمر لم ينطبق
عليك ..

وبرقت عيناه ، وهو يضيف فى شماعة :

- لقد أصدر أوامره بإعدامك .

قال (فارس) فى سخرية :

- حقا ؟!

قال (خوان) فى حدة :

- ألا يعنك أمر موتك ؟

هز (فارس) كتفيه ، وقال :

- الأعمار بيد الله (سبحانه وتعالى) ، ولكن ينبغى أن

تعلم أولاً أنك مخطئ .

قال (خوان) فى عصبية :

- بشأن إعدامك !؟

هز (فارس) رأسه فى هدوء ، وقال :

- بل بشأن رجال الحكيم (همام) .. إنهم أكثر

مما تتوقع بكثير .

بدا التوتر على وجه (جهلان) ، واندفع قائلاً :

- ما الذى تعنيه يا فتى ؟

لم يكذب عبارته ، حتى انطلقت هتافات رهبة خارج

القصر ، وراح العشرات يضربون أبوابه بأسلحتهم ،

فابتسم (فارس) ، وقال :

- هذا ما أعنيه .

شحب وجه (جهلان) فى شدة ، وهو يقول فى شحوب :

- إنهم ثائرون .

واحتقن وجه (خوان) ، وهو يهتف بـ (فارس) :

- ما هذا الذى يحدث ؟ .. ما الذى يعنيه ؟

أجابه فى صلابة :

- يعنى أن أحدا لم يعد يحتمل خيانة (جهلان) ،

ولا تواجد قشتاليين داخل القصر ..

لقد بدأت الثورة يا رجل .

صرخ (جهلان) فى رعب :

- لا .. لا .

ثم انطلق يعدو إلى برجه ، فى حين بدا الغضب على

وجه (خوان) ، وهو يقول :

- أنت .. أنت دفعتهم إلى الثورة .

هز (فارس) رأسه نفياً ، وقال :

- بل هى كامنة فى أعماقهم يا رجل ، وتنتظر اللحظة

المناسبة لتنفجر ، وتعلن عن نفسها .. ووجودك منحهم

القوة الكافية .. كل ما فعلته أنا هو أن أشعلت الفتيل

فحسب .

ازداد احتقان وجه (خوان) ، وتراجع يحدق فى

(فارس) والشيخ بمقت وكراهية ، فقال الشيخ فى هدوء :

- من حماقة أن تواصل القتال ، عندما تصبح الهزيمة

حتمية .

صاح به (خوان) :

- اخرس أيها الوزير .

٩ - الثورة ..

فجأة ، هبّ (مهاب) من رقادته ، وهتف :
 - أين (فارس) ؟
 ربّث الحكيم (همام) على صدره في رفق ، وهو يقول :
 - اهدأ يا رجل .. اهدأ .. (فارس) ليس هنا .
 تطلّع إليه (مهاب) في شك ، وهو يقول :
 - من أنت ؟ .. وأين ذهب (فارس) ؟
 ابتسم الحكيم ، وقال :
 - عجباً ! .. ألا تذكرني يا قائد الفرسان ؟
 هتف (مهاب) ، وهو يحذق في وجهه :
 - قائد الفرسان ؟ .. قليلون هم من يعرفون هذا اللقب ،
 ومن ..
 ثم بتر عبارته بغتة ، وتهلّلت أساريره ، وهو يهتف في
 حرارة :
 - الحكيم (همام) .. يا لسعادتي برؤيتك .. إننى لم
 أعرفك للوهلة الأولى .. لقد طعنت في السن ، وأصبحت
 لحيتك بيضاء كثة ، و ...
 بتر عبارته مرة أخرى ، وقال في توتر :
 - ولكن ماذا تفعل هنا ؟ .. وأين (فارس) ؟

ولكن الشيخ تابع :
 - والحكيم هو من يعلم متى يحنى جبهته للعاصفة .
 صرخ (خوان) :
 - قلت لك : اصمت أيها الوزير .. اصمت .
 ثم انعقد حاجباه في شدة ، وهو يستطرد :
 - ولكن حتى هذه الثورة ، لن تمنعنى من تنفيذ الحكم ،
 الذى أصدره مولاي .
 والتفت إلى زميله ، هاتفاً :
 - (كارلوس) .. استل سيفك .
 استل (كارلوس) سيفه على الفور ، فتابع (خوان)
 فى غضب صارم ، وهو يشير إلى (فارس) :
 - نفذ حكم الإعدام فى الفارس الأبيض .
 وفى حزم ، اتجه (كارلوس) نحو (فارس) ، ورفع
 السيف ، وهوى به فى قوة ، و ..
 وعلى صدر (فارس) .

تنهّد (همام) ، وقال :

- أنا أقيم في (شنتفى) منذ عدة أعوام يا رجل ، ولقد
لجأ إلى (فارس) ، في محاولة لإنقاذك ، بعد أن تلوّث
جرحك ، وأصابتك الحمى ، وهو الآن في قصر
(جهلان) ، يحاول إنقاذ الوزير .

هتف (مهاب) في زعر :

- وحده ١٢

هزّ الحكيم رأسه ، قائلاً :

- كلا .. ليس وحده .. لقد قرّرنا مؤازرته بثورة كاملة .

عقد (مهاب) حاجبيه ، وهو يتمتم :

- قرّرتم ١٣

أوما الحكيم برأسه ، وقال :

- نعم يا قائد الفرسان .. إننا نعلم أن (جهلان)

خائن ، يتعامل مع القشتاليين ، ويسعى لمعاونتهم على

انتزاع (الأندلس) الصغرى ، ولقد أعددنا أنفسنا ،

واستعددنا للثورة عليه ، وعزله من منصبه ، وكنا ننتظر

اللحظة المناسبة .

وتنهّد مرة ثانية ، ولوّح بذراعيه ، وهو يبتسم قائلاً :

- وجاء (فارس) ، وقرّرنا أن تبدأ الثورة اليوم .

غمغم (مهاب) في توتر :

- ولكنه وحده .

اعتدل (همام) ، وقال :

- (فهد) معه .

هتف (مهاب) :

- (فهد) .. أنت واثق من هذا ؟

أوما برأسه إيجاباً ، وقال :

- نعم .. إننى لم أفهم في البداية ما يعنيه (فارس) ،

بطلب وجود (فهد) في القصر .. ثم أتى (فهد) إلى

هنا .. جاء مصاباً والدماء تغرق جسده كله تقريباً ..

وعندئذ فهمت .. ولقد داويت (فهد) ، وطلبت منه البقاء

للراحة ، وذهبت لأحضر له بعض الدواء ، ولكننى عدت

فلم أجده .

ابتسم (مهاب) في ارتياح ، وأسبل عينيه ، وهو

يغمغم :

- لقد ذهب إليه .

هزّ الحكيم رأسه ، وهو يقول :

- عجيب هو (فهد) هذا .. إنه مخلص ووفى ، إلى

حد يجعلك تتمنى لو أن ...

بتر عبارته بغتة ، عندما لاحظ استرخاء جسد

(مهاب) ، وقال في قلق :

هل تسمعنى يا قائد الفرسان ؟

ولكن (مهاب) لم يكن يسمعه ..
لقد اطمئن على أمر (فارس) ، ثم عاد إلى غيبوبته ..
غيبوبته العميقة ..

★ ★ ★

رفع (كارلوس) سيفه في ثقة ، وهوى به على صدر
(فارس) ، إلا أن هذا الأخير تحرك في مرونة ، وهو
يستل سيفه ، ويصد به سيف (كارلوس) ، قائلاً :
- عندما تنشد قتل رجل ، تأكد من أنك قد جرّدته من
سلاحه أولاً .

ثم انقضّ على (كارلوس) ، وضرب سيفه في قوة ،
وأزاحه بعيداً ، قبل أن يضرب بطن هذا الأخير بسيفه .
وجحظت عينا (كارلوس) ، وهو يمسك معدته ، في
نفس اللحظة التي اقتحم فيها الثائرون أبواب القصر ،
واندفعوا إلى ساحته ، بعد أن عاونهم بعض الموالين لهم
من الداخل ، على فتح الأبواب ، فتراجع (خوان) ،
هاتفاً :

- اللعنة .

ثم صاح في الفرسان الستة :

- اقتلوا الفارس الأبيض .

وترك الفرسان ينقضون على (فارس) ، وهو يعدو

متجها إلى البرج الغربي ، واستقبل (فارس) الفرسان
الستة بسيفه ، وبدأ له أنه من المستحيل أن يقاتل ستة من
الفرسان الأشداء في آن واحد ، ولكنه ضرب بسيفه يميناً
ويساراً ، قبل أن يندفع إليه عشرة من خيرة فرسان
(همام) ، وهم يهتفون :

- اتركهم لنا أيها الفارس .

واشتبك الفرسان العشرة مع فرسان (جهلان) الستة ،
في نفس الوقت الذي اقتحمت فيه كوكبة من الثائرين البرج
الشرقي ، الذي يقيم فيه (جهلان) ، وراح هذا الأخير
يصرخ من شرفته ، التي التهمت النيران نصفها :
- لا .. لا تسمحوا لهم بالدخول أيها الحراس ..
اقتلوهم .. اقتلوهم عن آخرهم .. لا تسمحوا لهم
بالوصول إلى .

ولكن الثائرين أزاحوا الحراس عن طريقهم ، واندفعوا
إلى البرج ، و (جهلان) يصرخ في جنون :
- لا .. لا تسمحوا لهم .. إنهم سيقتلونني .. لا .
وأحاط به الثائرون ، فجحظت عيناه ، وتراجع
صارخاً :

- لا .. ابتعدوا عني .. ابتعدوا ..

ومع تراجعهم ، ارتطم بحاجز الشرفة نصف المحترق .



فتحطم الحاجز ، وهوى (جهلان) معه ، وهو يطلق صرخة رهيبية ، انتهت مع ارتطامه بالأرض ، وتحطم جسده تماما .. وفي هذه الأثناء كان (خوان) يعدو صاعدا إلى أعلى البرج ، و (فارس) يطارده ، وهو يقول في صرامة :

- استسلم أيها القشتالي .. لا فائدة من الفرار إلى برج عال .

صرخ (خوان) :

- محال أيها العربي .. محال .. إتنى أفضل الموت . ولكن لكل شيء نهاية ..

ولقد بلغ (خوان) نهاية البرج .. وهناك ، استل سيفه ، ووقف يلهث ، في انتظار صعود (فارس) ..

وعندما بلغ (فارس) نهاية البرج ، انقضَّ عليه (خوان) ، صانحا :

- الآن حانت نهايتك أيها العربي .

استقبل (فارس) سيف (خوان) على سيفه ، وأبعده بضربة قوية ، ثم وثب إلى تلك الحجرة الضيقة ، في قمة البرج ، واستدار يواجه (خوان) ، الذي بارزه في براعة ، وهو يقول في حدة :

- لن تنجح أيها العربي .. إتنى أستخدم السيف من زمن يناهز عمرك .

استقبل (فارس) سيف (خوان) على سيفه ، وأبعده بضربة قوية ..

تفادى (فارس) ضربته ، وهوى عليه بسيفه ، قائلاً :
 - المهم هو كيف تستخدمه أيها القشتالى .
 كان الاثنان يقاتلان ببراعة ومهارة ، حتى أن المباراة
 بدت متكافئة للغاية ، وهتف (خوان) فى عصبية :
 - من الواضح أنك تلقيت تدريبات جيدة أيها العربى .
 أجابه (فارس) ، وهو يثب نحوه ، ويدفع سيفه إلى
 صدره :

- بل هى ممتازة أيها القشتالى .
 تلقى القشتالى السيف بسيفه ، ودفعه بعيداً ، وهو
 يقول :
 - ليس إلى هذا الحد .

وفى نفس اللحظة ، تعالى هتاف الثالرين ، يعلن نجاح
 ثورتهم ، فتوقف (خوان) لاهثاً ، وهو يقول فى حدة :
 - من الواضح أن خطتك قد نجحت ، وبأكثر مما تتصور
 أيها العربى .

خفض (فارس) سيفه ، وهو يقول :
 - بل هو ما تصورته بالضبط أيها القشتالى .. أنت
 لا تعرف الروح العربية .. قد بصمت الشعب ويحتمل
 طويلاً ، ولكنه عند ما يثور ، لا تنجح قوة فى الأرض فى
 منع هذه الثورة ، حتى يستعيد حقه .

مط (خوان) شفتيه ، وقال :
 - هراء .

ثم انقض على (فارس) بفتة ، مستطرداً :
 - إنما هو ضعف (جهلان) .
 صد (فارس) سيفه ، ثم دفعه بعيداً ، قائلاً :
 - الطفافة دائماً ضعفاء ، مهما تصوّروا العكس .
 تراجع (خوان) بحركة مباغتة ، ثم اختطف مقعداً
 خشبياً صغيراً ، يستخدمه فى المعتاد رجال حراسة البرج ،
 وألقاه نحو (فارس) ، هاتفاً :
 - فكرة غبية كصاحبها .

تفادى (فارس) المقعد بانحناء جانبية ، فانقض عليه
 (خوان) ، صارخاً :
 - خذها منى أيها العربى .

تراجع (فارس) فى سرعة ، ليتفادى الضربة
 الموجهة إلى صدره ، ولكنه ارتطم بحاجز
 النافذة فى عنف ، وشعر بجسده يتراجع إلى الفراغ ، ثم
 هوى ..

هوى من البرج الغربى ..

★ ★ ★

تطلع الأمير (محمد بن الأحمر) إلى جثة (نذيرة)
في أسى ، ثم هز رأسه في أسف ، وهو يقول :
- يا للمسكينة !.. لم يتوقع مخلوق واحد أن تأتي
نهايتها على هذا النحو .. لقد كنت أعتبرها أما لابنتي
(جميلة) .

ثم نقل بصره إلى جثة (غالا) ، وقال :
- ولكن القاتلة نالت جزاءها .
ورفع عينيه إلى ابنته ، متابعًا :
- بيد ابنتي .

أجهشت (جميلة) بالبكاء ، وهي تخفى وجهها بين
كفيها ، فنهض الأمير ، واحتوى ابنته بين ذراعيه ، وربت
عليها في حنان ، قائلاً :

- لا تبكى يا بنيتي .. إنه قدرها .
قالت في مرارة :

- لست أبكى (نذيرة) وحدها ، وإنما أبكى ما فعلته
يا أبتاه .

ثم انهارت مستطردة :

- لقد قتلتها .. القتل أمر بغيض يا أبى .. بغيض
للاغاية .

تنهد وهو يضمها إليه في حنان ، مغمغماً :

- أعلم هذا يا بنيتي .. أعلم هذا .
وحاول أن يبتسم ، وهو يستطرد :
- ولكنك فعلت ما ينبغى فعله يا بنيتي ، فمن قتل يقتل ،
ولو بعد حين .
قالت باكية :

- ليس بيدى يا أبى ..
قال في خفوت :

- الله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم يا بنيتي .
ثم أشار إلى وصيفاتها ، فعاوئها في العودة إلى
جناحها ، وهو يقول لهن في حنان مشفق :
- خففن عنها .

وراقبها ببصره حتى غادرت قاعة الحكم ، ثم التفت إلى
وزيره ، وقال :

- ما الموقف الآن ؟

أجابه الوزير :

- لقد ثبت أنها خائنة ؛ لذا فلا ينبغى أن نصدق حرفاً
واحداً مما قالت .

أجابه الأمير :

- ليس الأمر بهذه البساطة أيها الوزير ، فما ذكرته
يتفق إلى حد كبير مع الكثير من المعلومات ، التي جمعها

جواسيسنا من (قرطبة) .. فصحيح أن القشتاليين
يجمعون فرقهم الآن ، ويعدون لهجوم عنيف مركز ،
ولكننا نجهل أين ستكون ضربتهم ..
قال الوزير :

- هذا لا يعني أنها ستكون في (شنتفى) يا مولاي .
هز الأمير رأسه ، وقال :

- أعلم هذا ، ولكن إعداد الجيوش وتحريكها يحتاج إلى
الكثير من الوقت أيها الوزير ، والضربة التي يعدها
القشتاليون قوية ، وتحتاج إلى حشد الكثير من قوتنا في
ضربة اعتراضية تفوقها قوة ، وهذا لن يأتي أبداً ، لو أننا
شتتنا قوتنا بطول الحدود .

وانعقد حاجباه ، وهو يستطرد في حزم :

- لا بد أن نعرف أين ستأتى الضربة أيها الوزير ..
أين ؟

وضرب سطح المنضدة المجاورة له بقبضته ، مكرراً
في توتر شديد :

- أين أيها الوزير ؟

ولم يحر الوزير جواباً ..

★ ★ ★

تألفت عينا (خوان) في فرحة غامرة ظافرة ، عندما
شاهد (فارس) ، يسقط من نافذة البرج ، وصرخ في
سعادة جنونية :

- انتصرت .. هزمتك يا فارس العرب .

واندفع إلى النافذة ، يتطلع منها إلى أسفل ، وهو يتوقع
رؤية جسد (فارس) . وقد تهشم فوق الصخور ، ولكنه
لم يكد ينظر ، حتى تفجرت صرخة في جسده كله :

- لا .

والتقى حاجباه في عنف ، عندما وقع بصره على
(فارس) ، الذي تعلق بذلك الحبل ، الذي استخدمه
للسعود إلى البرج مع الشروق ، وصرخ :

- لا .. لا يمكنك أن تفعل هذا .

كان (فارس) قد نجا بمعجزة حقيقية ، عندما رأى
الحبل أمامه ، وهو يسقط من النافذة ، وتذكر أنه لم يرفعه
بعد صعوده .

واستجمع (فارس) قوته كلها ، ودفع جسده نحو
الحبل ، وتشبث به .

وعلى مسافة ثلاثة أمتار من النافذة ، تعلق جسد
(فارس) ..

ثم ظهر وجه (خوان) ، وأطلق صرخته ، وحدث في
وجه (فارس) بكل الكراهية والمقت في أعماقه ، قبل أن
يرفع سيفه ، قائلاً :

- فليكن أيها العربى .. لن يلزمك الحظ إلى الأبد ..
وانعقد حاجبا (فارس) في شدة ، عندما رأى
(خوان) ينحنى إلى الأمام ، ويمسك تلك الحلقة المعدنية ،

١٠ - الختام ..

فجأة ، امتدت يد قوية عبر النافذة ، وقبضت على
معصم (فارس) ، ل تمنعه من السقوط ..

ورفع (فارس) عينيه إلى أعلى ، ثم هتف في سعادة
حقيقية :

- (فهد) .

بدا ارتياح واضح في عيني الزنجدى العملاق ، وهو
يجذب (فارس) إلى داخل البرج ، ثم ينتزع السيف الفضى
من قلب (خوان) ، ويعيده إليه ، فهتف (فارس) في
انفعال :

- (فهد) .. وأخى الحبيب .. كنت أعلم أنك ستظهر
في الوقت المناسب .. كنت واثقاً من هذا .

اهتم (فهد) في سعادة ، دون أن تنفرج شفاهه عن
حرف واحد ، ولاحظ (فارس) الضمادات التى تملأ
جسده ، فقال فى توتر :

- ربّاه !! ماذا أصابك يا صديقى ؟

أمسك (فهد) كتفيه ، وهو يبتسم فى وجهه ، وكأنه
يطمئنه على ما أصابه ، ثم انحنى أمامه فى احترام ،
فجذبه (فارس) ، قائلاً :

- لا يا (فهد) .. لا يا أخى .. لا تركع أمامى قط .

المثبت فيها طرف الحبل ، ثم يبدأ فى قطعه بسيفه ، قائلاً
فى تشف واضح :

- هيا .. أرنى كيف تنجو الآن .

ولم يتردد (فارس) لحظة واحدة ..

لقد أدار سيفه الفضى فى يده ، وقذف به (خوان) بكل
قوته ..

وانغرس السيف فى قلب (خوان) مباشرة ، فاتسعت
عينا القشتالى فى ألم وارتياح ، وهمهم بكلمة غير
مفهومة ، ثم سقط داخل البرج جثة هامدة ..

ولكن عينا (فارس) اتسعتا فى قلق أكثر ..

لقد رأى الحبل ، وقد قطع سيف (خوان) نصفه
تقريباً ، وبدأ النصف الثانى يتمزق مع ثقله ..

وراح (فارس) يتسلق الحبل فى سرعة ، وهو يأمل
أن يبلغ حافة النافذة ، قبل أن ينقطع ..

ولكن ، ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ..

لقد كان (فارس) على مسافة نصف المتر من حافة
النافذة ، ويمد يده إليها ، عندما انقطع الحبل بغتة ..
وعاد جسده بهوى .

تعالى هتاف الثائرين الظافر مرة أخرى ، فقال (فارس)
في سعادة :

- هل تسمع يا (فهد) ؟ .. هل تسمع هتافهم ؟ .. لقد
نجحنا يا (فهد) .. نجحنا .. هيا بنا نشارك الثوار
فرحتهم .

وأسرع يهبط في درجات السلم عدواً ، ووجد الثوار
يحيطون بالشيخ ، فأسرع إليه ، هاتفاً :

- انتصرنا يا سيدي .. هزمتنا القشتاليين مرة أخرى
يا عمّاه .

أجابه الشيخ في رصانة :

- ليس بعد يا ولدي .. لقد كشف لنا أحققهم خطتهم
الحقيقية ، وعلينا أن نبلغ مولاي (ابن الأحمر) بها ، حتى
يتخذ ما يلزم لصد هجوم القشتاليين .

ارتفع صوت يقول :

- اترك لنا هذه المهمة أيها الوزير .

استدار الشيخ إلى مصدر الصوت ، وابتسم وهو يقول ،
في لهجة تحمل رائحة السعادة الحقّة :

- الحكيم (همام) .. يا لسعائتي لرؤيتك .

تصافحا في حرارة ، وقال الحكيم بابتسامة واسعة :

- لدى هنا وسائل عديدة ، لإبلاغ مولانا الأمير بكل
شيء يا سيدي الوزير .

ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :
- ولكننا سنحتفل الليلة بانتصارنا ، وبمصرع الخائن
(جهلان) .

غمغم الشيخ :

- أخشى أن ..

قاطعه (همام) بابتسامة كبيرة :

- لا .. لن أقبل أية اعتذارات .. إنها أول مرة نجتمع
فيها ، أنت وأنا ، وقائد الفرسان (مهاب) ، منذ ذلك اليوم
المؤسف في (قرطبة) .

ابتسم الشيخ ، وقال :

- حسن .. إنك لم تترك لي فرصة واحدة .

ومال (فارس) على الحكيم ، يسأله في اهتمام :

- وبالمناسبة .. كيف حال (مهاب) ؟

أجابه الحكيم :

- إنه في خير حال ، وأظنه يستطيع مشاركتنا احتفال
النصر الليلة .

هتف (فارس) في سعادة :

- إذن فهو بخير .. يا لسعائتي ! .. هل تسمع

يا (فهد) ؟ .. (مهاب) بخير .

والتفت يبحث عن (فهد) ، ثم انعقد حاجباه في شدة ..

لقد فعل (فهد) ما يفعله عادة ..

اختفى ..

اختفى تماما ..

★ ★ ★

، اللعنة ! .. ،

هكذا هتف الملك (فرناندو) ، وهو يلقي كأسه في
عنق ، فارتطمت الكأس بالجدار ، وانسكب ما بها من
خمر ، فقالت (إيزابيلا) في صرامة :
- هذا لا يليق بالملوك .

صاح بها محققا :

- اصمتي .. لم أعد أحتمل مواعظك .

هتفت به :

- ماذا تقول أيها الملك ؟

صرخ في غضب :

- أقول : إنني سئمت كل هذا .

وبدت عيناه محمرتين ، وهو يستطرد في مرارة :

- هؤلاء العرب الأوغاد كشفوا خطتنا .

اتسعت عيناهما في طلع ؟ وهي تهتف :

- ماذا ؟

نهض يسترجع كأسه ، ويصب فيها الخمر ، وهو يقول :

- نعم يا ملكة (قشتالة) و (ليون) .. لقد كشف
العرب خطتنا .. ذهبنا إليهم بخمس فرق ، فانقضوا علينا
بسبع ، وكادوا يفتكون بنصف جيشنا ، لولا أن انسحب
الجميع بأقصى سرعة ، وراحوا يعدون كالخراف .
هتفت في ارتياح :

- يا إلهي !

جرع كأسه دفعة واحدة ، وهو يقول :

- كل هذا لأننا نفتقر إلى الجواسيس الماهرة .

والثفت إليها ، مستطرذا في حدة :

- هل تعلمين أنهم قاموا بثورة على (جهلان) ..

حليفنا الأول ، وانتزعوه من عرشه ، وقضوا عليه ،

وكشفوا خطتنا كلها ، دون أن يبلغنا هذا الأمر ، إلا بعد أن

حاصر العرب فرقنا الخمس في (بسطة) .

ارتجفت ، قائلة :

- إلى هذا الحد ؟!

قال في مرارة ، وهو يصب كأسا أخرى :

- نعم .. إلى هذا الحد .. إلى الحد الذي أصبحنا معه

عاجزين عن انتزاع مملكة (غرناطة) ، على الرغم من

أننا نمتلك الآن ثلاثة أرباع (الأندلس) .

وجرع الكأس الثانية دفعة واحدة ، ثم اقترب من

النافذة ، وقال :

- ولقد قتلوا (غالا) .

اتسعت عيناها ، وهى تقول :

- قتلوها ؟!

ألقى الكأس فى عنف ، صارخا :

- نعم .. قتلها هؤلاء العرب .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستطرد :

- ومازلت أصرّ على رأيي ، الذى تخالفينه كثيرا .. إننا

لن نظفر بمملكة (غرناطة) ، إلا بعد أن نظفر بذلك الفارس .

غمغت :

- الفارس الأبيض ؟!

أطلق من أعماق صدره زفرة قوية ، وهو يقول :

- نعم .. فارسهم الأبيض ، مع معلم السلاح ، وذلك

الزنجي ، والوزير السابق .. إنه ذلك الفريق ، الذى يحبط

خططنا دوماً ، والذى أقسم أن أضع حداً لأعماله ..

وعاد حاجباه ينعقدان فى شدة ، وهو يضيف :

- ولن يهدأ لى بال ، حتى أضع قبضتى على ذلك

الفارس ..

وكان هذا إيذاناً بحرب جديدة ، تخوضها (قشتالة) ضد

فارس واحد ..

فارس (الأندلس) .

www.liilas.com/vb3

[تمت بحمد الله]

مين هناك
١٤٢